

حكايات شرقية من برلين

تأليف
الدكتور عبد الحكيم شباط
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م





© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.

www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.

نشر إلكتروني في جمادى الأولى، ١٤٣٤ / مارس، ٢٠١٣.

يمنع منعاً باتاً نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

تصميم الغلاف و الإخراج الفني: هالة الغامدي

إهداء

إلى كلّ إنسان يسعى لنشر الفضيلة والمُثل الإنسانية النبيلة
إلى
سامر وخالد

محتويات الكتاب

٤	المقدمة
٥	السائق الذي غيّر حياتي
٨	رسالة إلى ماريا
١٧	الصخرة السوداء
٢٥	كلب الحراسة
٣٢	أوراق مبعثرة
٣٥	صاحب المقام الرفيع
٣٨	دموع باردة
٤٠	المعلبات الفاسدة
٤٣	أوغسطين
٤٧	المتنفذ
٥٠	معلم الصبيان
٥٢	دائرة الوهم
٥٤	القطط المتخمة
٥٨	ورقة الخريف
٦٠	عودة أحيقار
٦٩	مفتاح القيد
٧٢	جدل عربي
٧٤	وجد حلاً
٧٦	دائرة القمامة
٧٩	عذراً عباس
٨١	قحف السلحفاة
٨٥	بائع الكرستال
٨٧	في المنفى
٩٠	السّمكة في المزهريّة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
عزيزي القارئ..

ليس هناك أعظم من أن يخدم الإبداع الأدبي الجوانب الإنسانية الصادقة من حياتنا، ففي ضبابية الرؤية، وعجيج الحياة، وصخبها، وسيرها البغيض إلى المادية المفرطة ... بات من الصعب الحصول على نقاء الرؤية الإنسانية السليمة، وعلى شفافية الأرواح، وصفاء المشاعر والعواطف.

هذه النصوص مواقف نقدية، وخواطر وجدانية، جاءت تصويراً صادقاً للواقع الذي عاشه أبطالها، وقد يخيل للقارئ أنها حوت - في بعض المقاطع - حشواً من الكلام المبتذل أو المتناقض، الذي يخرج عن السياق العام لتتالي الأحداث، أو يبتعد عن مسرح العمل، لكن ذلك لا يعكس إلا حقيقة الأحداث الواقعية، التي تجمع بين طبيّاتها الأضداد والمتناقضات في الحدث الواحد، بل تحمل الصغائر والسفاسف، وعلى الرغم من ذلك فإنها تبقى جزءاً من الواقع، الذي يُعدّ المرجع الأوّل والأخير لكل عمل أدبي، حتى إن كان من نسج الخيال؛ لأنّ هذا الخيال ما هو إلا اجترار لصور وأحداث مأخوذة من الواقع، بعد أن تُكسى حُلاًلاً جديدة.

وقد عمد المؤلف إلى أن يجعل الزّمان والمكان الذين تدور فيهما الأحداث متناوئين بين مفتوح ومغلق، مخالفاً بذلك ما تواضع عليه أهل الأدب الحديث أو المعاصر في كتابة القصة القصيرة، وذلك رغبة منه عن التقيد بأساليب أدبية تبدو جامدة في فرضها قولبة مسبقة على أي عمل إبداعي؛ فكل عمل له خصوصية تنجم عن نوعه ولغته وأفكاره ...

ولذلك أيضاً فقد تأتى القصة ممزوجة بخاطرة، وقد ينطوي النصّ الأدبي على نص فلسفي أو تربوي؛ إذ يقر الكاتب منذ البداية بأنه أثر استعمال الأسلوب الأدبي لإيصال فكرة ناقدة؛ هرباً من الأسلوب المباشر الجاف الذي قد يكون سبباً لصدود القارئ. راجياً من الله التوفيق في أن يلقي مثل هذا الأسلوب قبولاً، وأن تقدّم هذه المجموعة المتواضعة ما يمتع ويفيد.

عبد الحكيم شباط

ألمانيا ٣٠ يوليو ٢٠١٠

السائق الذي غير حياتي

اعتدت في ذهابي صباحاً وإيائي ظهراً في طريق عملي بشركة الكهرباء أن أركب الحافلة مع السائق عبد القادر، الذي فهمت من كلامه أنه يعمل أجير لمالك الحافلة، وقد ألفت الرجل وألفني، فأصبح يكرمني بأن يحجز لي المقعد الأمامي الذي بجنبه، فهو يعرف مواعيد انتظاري له في الموقف جيداً؛ إذ مضى على تعارفنا عدة سنوات، وسمحت لنا النصف ساعة التي أقضيها بجانبه صباحاً ومثلها ظهراً أن يكون بيننا مواضيع مشتركة، نتجاذب بها أطراف الحديث، وفي بعض الأحيان نتبادل الشكوى من ثقل أعباء الحياة، وضيق العيش، وهموم العيال وشؤونهم.

كان عبد القادر رجلاً في الخمسينات من العمر، يزيدني عقداً من الزمن، لكن رغم ذلك كان يقدمني في الحديث، ويخاطبني باحترام شديد؛ لكوني رجل متعلم وموظف حكومي، وهو مجرد سائق حافلة، هذا من وجهة نظر التراتبية المهنية في تقاليدنا الآسنة. والرجل على خلاف الكثير من السائقين الذين عرفتهم كان على خلق كريم، ليس بالبذاء، ولا الشتام، أو النمام. أسلوبه المؤدب واللطيف في مخاطبة الناس يزيده دماثة، وكذلك عذوبة مظهره الوقور بلحيته البيضاء المشدبة، ووجهه الرحيم الذي ما انفكت تزيينه ابتسامته الأبوية الحانية. كان جل حديثه عن الأخلاق القويمة، والصلاح، والتقوى، وما شابهها وأفضى إليها من أحاديث وأخبار.

في صباح أحد الأيام انتظرت كالعادة في موقف الحافلات قدوم السائق عبد القادر؛ ليوصلني إلى مكان عملي، انتظرت أكثر من نصف ساعة، لكنه لم يأت، قلت في نفسي: ربما تأخره كان بسبب الازدحام، ورغم أنني لا أحب أن أركب إلا معه، فلم يكن بإمكانني الانتظار أكثر، فركبت من فوري مع سائق آخر. بعد الانتهاء من العمل حدث ما حدث في الصباح، ولم يمر عبد القادر بمحافلته في الموقف الذي انتظره به عادة. عندها حدثتني نفسي بأنه ربما يكون مريضاً، إذاً فلا بد من السؤال عنه، وتذكرت في الحال أنني رغم الالتقاء به يومياً لم يكن يخطر ببالي أن آخذ منه رقم هاتفه أو عنوان منزله. بعد هذا اليوم مرت أيام ثم أعقبتها أيام، وعبد القادر لا يحضر بموعده، فثارت في نفسي الهواجس، وبدأت أقلب وجوه الاحتمالات: ربما يكون الرجل قد تعرض لحادث مروري ... ربما يكون مريضاً وحالته سيئة ... بل ربما قد وافاه أجله، فما أكثر حالات الموت المفاجئ في بلادنا هذه الأيام! لاحظت زوجتي مساءً علامات الحيرة التي ترتسم على تقاسيم وجهي؛ فقد أهمني أمر ذلك الرجل، وكيف لا، وقد ألفت رؤيته وحديثه صباحاً وظهراً طيلة أيام العمل؟! سألتني عن شأني، فأخبرتها بما ألم بي، فأشارت عليّ بأن أسأل عنه السائقين الذين يعملون في نفس الطريق المروري؛ فهم غالباً ما يعرفون بعضهم بعضاً، فاستغربت كيف غابت عني هذه الفكرة. وفعلاً أخذت أسأل السائقين الذين أركب بحافلاتهم في ذهابي للعمل، فأخبروني بأنهم مثلي لا يعرفون ما حدث له، لكنهم أشاروا عليّ بسؤال مكتب تنظيم الرحلات في الموقف العام، فلا بد للسائق من أن يترك رقم هاتفه

هناك. وهكذا حصلت على رقم هاتفه، فحاولت الاتصال به مرة تلو الأخرى، لكن لم يجيني أحد. ولما أعيتني الحيل في معرفة ما حدث لهذا الرجل فوضت أمره إلى الله، فهو به وبني أعلم، والتفت لشؤني. لكن في ضحى اليوم التالي اتصل عليّ موظف الاستعلامات في شركتي، وقال لي: لدي شاب يسأل عنك، ويطلب مقابلتك لأمر خاص لا يتعلق بالعمل، فسألته أن يسأله عن اسمه، فأنا لا أذكر أنني أعطيت أحداً ما موعداً خاصاً للالتقاء في الشركة، فذكر لي أن الشاب يقول: إنه ابن السائق عبد القادر، وإن أباه يعرفك، وهو الذي أرسله إليك! فرحت عند سماع هذا الكلام من زميلي في الاستعلامات، وطلبت منه أن يرسل لي الشاب في الحال، وما هي إلا برهات حتى وصل مكنتي شاب بقامة شامخة، وبنية مكتنزة، ولحية سوداء ممشطة بإحكام، وعلى الفور تفرست فيه تقاسيم أبيه. لقد شعرت بالسعادة عندما رأيت هذا الشاب، وكأني أرى ابن أخي، لم أكن أعرف أنني أحب السائق عبد القادر إلى هذه الدرجة، عاجلته بالسؤال عن أبيه، لكن الشاب كان مقطب الحاجبين مع شيء من الغضب، فعلمت أن في الأمر شيئاً، فاستفسرت منه، فأخبرني بأن أباه قد وافته المنية، ثم صمت!

قلت في نفسي: لقد صدقت هواجسي، عبد القادر توفي ... هجم الحزن على قلبي دفعة واحدة، وشعرت كأن أحد أفراد أسرتي هو الذي قد نزلت به مصيبة الموت، استرجعت الله، وعظمت مصاب الشاب، فوجدته صابراً محتسباً. قلت: نعم الخلف أنت، أخبرني كيف حدثت الوفاة لأبيك، قال لي: لقد اعتاد والدي أن يستيقظ في جوف الليل؛ ليصلي ما شاء الله له أن يصلي من القيام في ملحق على سطح المنزل الذي نعيش فيه (غرفة صغيرة يختلي فيها بنفسه) حتى إذا ما حان وقت صلاة الفجر ينزل إلى أهل الدار؛ ليقظهم للصلاة، ثم يذهب للمسجد. وفي ذلك اليوم لم ينزل كعادته، فصعدنا إليه، فوجدناه قد أسلم الروح لبارئها، وهو ساجد بين يدي ربه. غسلناه، وكفناه، وصلينا عليه، ثم واريناه التراب، ودعونا له ما شاء الله لنا أن ندعوا، ثم قمنا بواجب العزاء له ثلاثاً. بعد ذلك أردنا أن ننفذ وصيته، ونرعى تركته، فوجدنا فيما وجدناه في خزنه ظرفاً مغلقاً مكتوباً عليه بخط يده "مهم يفتح بعد موتي". فتحنا هذا الظرف، فوجدنا رسالة صغيرة، تقول: الأستاذ فارس المنبجي - موظف في شركة الكهرباء - يُشرك في الإشراف على استمرار إيصال المعلوم من الحقوق إلى أهلها بعد موتي، مع فلان وفلان، وذكر بعض إخوانه وأصحابه. وها أنا جئت إلى حضرتك؛ لأدعوك مساء يوم الخميس المقبل، لأن تحضر إلى منزلنا؛ لتشهد بوجود المحامي وبقية الوصاة إنفاذ ما أمر به والدي رحمه الله.

في الحقيقة لم أكن أعرف أن السائق عبد القادر يعزني إلى هذه الدرجة، حتى يشركني بإنفاذ وصيته من بعده، ثم دار في نفسي سؤال على عجل: وماذا سيملك عبد القادر من مال يوزعه وهو السائق الأجير على حافلة عامة؟! أجبت ولده بأنني سأحضر إن شاء الله، رغم أنني كنت قد وعدت أسرتي بالذهاب مساء الخميس المقبل للمنتزه!

وصلت يوم الخميس منزل عبد القادر على العنوان الذي أعطانيه ولده. كان في حارة شعبية بأحد أحياء المدينة الفقيرة. أدخلني ولده غرفة الضيافة، وعرفني للحضور على أبي صديق لأبيه. كان من بين الحضور

محامي، وثلاثة رجال، منهم أخ لعبد القادر، واثنان من أصدقائه المقربين. علمت أننا المعنيين بإنفاذ وصية عبد القادر. كان المحامي مشغولاً بإعداد الأوراق في الوقت الذي كنت أنظر فيه إلى أطراف المضيف ذي الأثاث المتواضع، وأقول لنفسني: لقد أتعبنا عبد القادر بوصيته، وعطينا عن الذهاب مع العيال إلى المنزلة، لأجل شيء غير ذي قيمة، فما عساها تكون تركة سائق أجير؟

قطع عليّ المحامي حديثي مع نفسي، وقال لي: يا أستاذ فارس، إن المرحوم اختارك؛ لثقتك بك مع بقية الإخوة؛ لتكون مسئولاً أمام الله من بعده عن الإشراف على إيصال الدخول، التي اقتطعها من ثروته إلى مستحقيها! حال سماع ذلك أصابني الحيرة، فسألت المحامي أن يوضح لي ماذا يقصد بالدخول؟ وما هي الثروة التي يمتلكها السائق عبد القادر؟

قال لي المحامي: لا بد أنك تعرف يا أستاذ فارس - بصفتك صديقاً للمرحوم - أنه كان من أثرياء المدينة، وأنه يملك كذا وكذا من العقارات والمتاجر. وقد تكفل في حياته بنفقة ثلاثين عائلة من الفقراء والأيتام والأرامل، وكذلك نفقة عدة مساجد في الأرياف النائية. ووصيته أن تستمر هذه الكفالة من بعد موته، وقد انتدبك؛ لتكون أحد الذين يشرفون على إيصال هذه النفقات من بعده!

أدهشني كلام المحامي، فشعرت بارتباك شديد، وتزامت الأسئلة على رأسي، هل يُعقل هذا؟ كيف أن عبد القادر - الذي يعمل سائقاً على حافلة طويلة النهار تحت حر الشمس الملهب، ولا يلبس غير الرخيص من الثياب، ويتواضع بشدة لي وأنا لا أملك غير راتبي الزهيد - يملك كل هذا الثراء؟ ولماذا أشركني في تنفيذ وصيته؟ ما الذي دفعه لفعل ذلك؟ هل أستحق منه هذه الثقة لمجرد أننا تعارفنا في الحافلة؟!

أمسكت ولده الأكبر، وأخذته إلى طرف الحجرة، وتكلمت معه عن حدود معرفتي بأبيه، وأنه طالما أخبرني بأنه ليس إلا أجير على الحافلة! فتبسم في وجهي، وأجابني بأن أبيه كان يعتبر المال كله لله، وأننا لسنا إلا أجراء عند الله، وكان يرفض إلا أن يعمل بيديه، رغم أنه كان قد ورث عن عائلته العقارات والمتاجر، التي تجعله - لو شاء - يتمتع بالنعم والجاه، إلا أنه ما كان يرضيه إلا أن يأكل ويشرب ويلبس كالفقراء. أما عن معرفته بك فإن للمؤمن فراسة، وقد تفرس والدي فيك الصلاح للإشراف على إيصال الحقوق إلى أهلها. وأنت إن شاء أهل لذلك. تسلمت تفويض الإشراف الموكل إليّ مع بقية الإخوة، وشرح لي المحامي الكيفية التي سوف يتم بها هذا الأمر، فشعرت بمحمل ثقيل وضعه عبد القادر على كتفي، لكنني رغم ذلك كنت أجد في قلبي السعادة والرضا بأن قيض لي الله شرف المساهمة في هذا العمل النبيل.

عدت إلى منزلي في تلك الليلة ودموعي على خدي، وأنا أسترجع شريط ذكريات مع عبد القادر، وأخذت أفسر، وأفهم الكثير من كلامه، الذي كنت أعتقد من قبل أنه ليس إلا كلام سائق طيب، وسألت نفسي مراراً: هل أنا حقاً أستحق الثقة التي منحني إياها هذا المحسن؟ لقد غير هذا الحدث حياتي، فعرفت أسمى معاني الإنسانية والإيثار من خلال هذا الرجل. كنت أسمع عن مثل هذه القصص من قبل، فأقول: مبالغات وقصص، حتى علمت حقاً كما أخبرنا عن الصادق، أن الخير سيبقى في هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ... بقي أن أخبركم أنه بعدها بشهور رزقني الله مولد ذكر، فأجمعت أسرتي على تسميته عبد القادر.

رسالة إلى ماريّا

عزيزتي ماريّا:

أكتب لك هذه الرسالة وأنا أعلم أنك غاضبة مني كثيراً؛ لأنني لم أرافقك إلى جزيرة (روغن)، واخترت السفر إلى الشرق. لكنك تعلمين أنني ادخرت من راتبي لمدة عام كامل حتى أستطيع القيام بهذه الرحلة، فمنذ طفولتي وأنا أحلم بزيارة المدن القديمة، ولقد أخبرتك كم أنا متعلق بآثار الشرق القديمة قدم الزمن، وكم أنا مهووس بتلك الأساطير عن معابده وملاحمه، وكم أنا مغرم برائحة البخور المعتق المتسللة عبر فيافي الصحارى الممتدة امتداد السراب، والغامضة غموض الأوهام. في رسالتي هذه أبوح لك بثلاث كلمات.

الكلمة الأولى: عندما ابتعدت عنك اكتشفت للمرة الأولى ماذا يعني أنني أحبك؟! والثانية: عندما رفضت المجيء معي شتمتك بأنك عنزة غبية!١ لقد كنت غاضباً جداً حينها، فأرجو أن تسامحيني ولا تحقدين عليّ، فلم أكن أقصد الإساءة. والثالثة: اعترف بأنني كنت مغفلاً عندما فضلت زيارة بعض الأحجار القديمة على مرافقتك!

عندما وصلت في اليوم الأول إلى الفندق تبين لي أن مكتب السياحة قد خدعني بمستوى الخدمة مقارنة بالتسعييرة العالمية؛ فقد كان الاتفاق على أن أنزل في فندق أربعة نجوم مقابل ثمانين دولار في الليلة، وهذا المبلغ يبدو مرتفعاً جداً بالنسبة إلى مستوى المعيشة في هذه البلاد. فالثمانون دولار دخل عامل لمدة شهر كامل هنا. والمشكلة ليست في التسعييرة، بل في أن خدمة الفندق لا تعدل فنادق النجمتين لدينا، وربما أن النجوم هنا تبدو أقل لمعناً، لذلك يصل ضوءها خافتاً، فيتدنى بذلك مستوى الخدمة!

وفي صباح اليوم الثاني كان هناك طابور من السياح يقف أرتالاً أمام (التواليت)؛ فقد أصيب جميع أعضاء الفوج السياحي بإسهال وقيء شديد. وقد أخبرنا طبيب الفندق أن هذا كان بسبب الخضروات واللحوم التي استخدم المزارعون ومربو الدواجن فيها مواد (هرمونية) من أجل زيادة نموها، والإسراع في تنضيجها، لكنه أخبرنا كذلك بأنه يجب علينا ألا نقلق؛ لأن أجسامنا سوف تعتاد على هذا النوع من الأغذية المسمومة بسرعة كبيرة!

وعندما بدأت التجوال في المدينة، تبين لي أنني نسيت أن أطلب من خدمة الفندق خريطة اجتياز الشارع إلى جانب خرائط الأماكن السياحية، فقد كانت الحافلات تتدفق في الشوارع كالنهر دون توقف. والطريقة الوحيدة للعبور إلى الضفة الأخرى هي السباحة بين تيارات هذا النهر، ولأنني لا أجيد السباحة بمثل هذا النهر فقد كان عليّ أن انتظر طويلاً تحت أشعة الشمس الملتبته إلى جانب إشارة المرور، التي أصيبت بعمى الألوان، فلا تعرف غير اللون الأسود. وبينما أنا على تلك الحال إذا بالنهر يتوقف فجأة، توقف كل شيء:

١ تعتبر هذه الصفة من أقسى عبارات شتم المرأة في الثقافة الألمانية

الأجسام المعدنية، والأجساد البشرية، كل شيء كان هادئاً، والطريق شبه فارغة، لم أكن أشك حينها بأن إشارة المرور قد استفاقت من غفوتها وبدأت بالعمل، فوضعت حقيبتي على ظهري وعبرت الشارع، وعندما وصلت إلى الضفة الأخرى جذبني واحد من ثيابي بشدة، فنظرت خلفي، فإذا هو شرطي مرور، وبيده عصاً سوداء صغيرة، يلوح بها فوق رأسي، فرجوته ألا يفعل بلهجته المحلية؛ فأنا كما تعلمين أجيد اللهجات الشرقية، لكنه استطاع أن يتبين من هيتي أنني سائح أجنبي، فاعتذر لي، ثم أخبرني أنه عليّ ألا أقطع الشارع عندما يحين موعد خروج موكب السيد المحافظ! سألته إذاً متى أستطيع أن أجتاز الشارع؟ فأجابني عندما تكون الطريق مزدحمة بالسيارات! شكرته على النصيحة. وعندما عدت إلى الفندق مساءً نظرت في المرأة فاكشفت أنني حصلت على تجربة مذهلة حول كيفية تبدل لون الجلد البشري، لقد كانت لدي معلومات عن حدوث ذلك عند بعض الزواحف، لكن لم أكن أعرف أن هذا ممكن كذلك عند البشر!

لقد كان في خطتي أن أزور مجموعة من الأماكن الأثرية في الشرق، كان أهمها بلا شك بالنسبة لي هو زيارة متحف مدينة الأدرج؛ لرؤية القطعة الأثرية النادرة لإلهة الحب والجمال (الإلهة عشتار)، كنت أدور حول التحفة الفنية الرائعة لالتقط لها بعض الصور، ثم وقفت أتأمل منظر عشتار الوقور، وهي تقف في سكون شديد، بعينين ناعستين، وقد طوق عنقها بالحلي المشكولة، وزين عضديها ومعصميهما بالأساور، وبرز من فوق صدرها نهدين مقببين متجاورين من غير التحام، في حين كانت جدائلها الملفوفة تغطي كتفها كأنهما شال حريري، وقد صفف الشعر الذي يعلو الرأس كأنه تاج عظيم، يظهر في وسطه مفرق الشعر كأنه جوهرة مستطيلة الشكل، تضيق في الأعلى وتتسع في الأسفل. أما الأنف فكان طولانياً مستقيماً من غير عوج، يتبعه فم صغير مشلب كأنه حبة كرز. وقد ارتدت ثوباً طويلاً يغطي معظم ساقها، ولا يظهر من تحته سوى الجزء الأمامي من قدميها، فكان بإمكانني أن أعد أصابع قدميها وأميزها بدقة، لكن أكثر ما أثار إعجابي واستلفت ناظري هو مشهد الجرة الصغيرة التي تحملها بين يديها، حيث أمسكت عنق الجرة بيدها اليمنى، وبسطت راحة يدها اليسرى تحتها، فكان حقاً مشهداً بديعاً لإلهة الإغراء والجمال، التي سقطت في شراكها آلهة العالم القديم، الواحد تلو الآخر. أرجو يا عزيزتي ألا تشعرين بالغيرة من إعجابي الشديد بعشتار، فأنت أجمل جميلات الأرض في عيني، أما عشتار فهي المرأة الإلهة التي حلم بها جميع الآلهة الرجال. وعليك أن تتخيلي وأنا أتأمل عشتار في محراب السكينة، وأراقب بصمت كيف لقت راحتها حول تلك الجرة، التي ترمز إلى الخصب والعطاء الذي تفيضه الآلهة على أهل الأرض.

وإذا بعامل النظافة في المتحف يقترب من عشتار، ثم يفرغ تبغ (سجارتته) المحترق في تلك الجرة! أصابتي الدهشة مما رأيته، فرمقته بنظرة حادة يملؤها الاستنكار مما فعل، لكنه نظر إليّ بكل برود، ثم حرك رأسه بكل غباء، ورسم على فمه العريض - الذي يشبه كهفاً مهجوراً تحيط به الحشائش من كل جانب - ابتسامة صفراء، ثم أطفأ (سجارتته) في فم عشتار، ورمى العقب في جرتها! لم أستطع استيعاب ما حدث أمامي، لقد ادخرت المال من راتبي لفترة طويلة، وقطعت كل هذه الأميال، وتسببت في إغضابك، وفراقك؛ لأجل

مشاهدة هذه القطعة الأثرية التادرة، وأحظى ببعض الصور لها، وهكذا بكل بساطة يتجرأ هذا العامل على تحقير حلمي وإهانة عشتار بكل وقاحة، ولم يكتف بنكت التبغ في جرتها، بل أحرق بغبائه المدقع فيها السّاحر!

خرجت من المتحف والأسئلة الحائرة تنهال على رأسي، والدهشة تملأ نفسي، لماذا حدث هذا المشهد؟ وما الذي حمل ذلك العامل على فعل تلك الحماقة؟ هل الجهل؟ هل الرغبة في إغضابي لكوني أجنبياً؟ هل يمكن أن يكون هذا حقاً هو سليل أولئك الذين عمروا الأرض ذات يوم، وشيدوا الصّروح الشامخة في ممالك الأنهار العظيمة؟ وهل هو حقاً وريث مصر وكوش وآشور وكنعان؟ إذا كان هو كذلك فإن آباءه كانوا يجثون عند أقدام عشتار، ويتوسلون إليها أن تقبل أعطياتهم وقرابينهم، ولم يمنعهم من ذلك أن كانوا سادة العالم! عندما كنت أقف في تلك اللحظة أمام مدخل المتحف نظرت إلى السماء، فرأيت تلك الغيمة السوداء، التي تكونت من أبحرة الورش، وعوادم الحافلات، ثم نظرت إلى الأبنية الرخامية، التي تحولت إلى كتل من الأوساخ، وأصغت أذناي إلى الصّخب والضجيج القاتل، الذي تعج به المدينة، ثم لفحت وجهي موجة من الهواء الساخن، فشعرت بفتور شديد يسري في أعصابي، وارتحاء ينتشر في أطرافي. انتابني حالة من الذهول واليأس، في لحظة واحدة فقد الشرق سحره ورونقه، وتحول من قصص الجوّاري والغلمان، والقصور العجيبة الخلافة، والينابيع الدافئة العذبة، والجداول الصّافية الرّقراقة، والصحاري الذهبية، والنجوم المتلألئة ... إلى صور قاتمة، وأشباح تطوف حول أطلال مهجورة. كانت مشاعر الخيبة والأسى تتلبسني من أسفل قدمي حتى أعلى رأسي، فقررت أن أحزم أمتعتي، وأعود من حيث أتيت؛ فلم يعد لدي الرغبة في متابعة هذه الرحلة، عدت إلى الفندق وأنا على نية القفول راجعاً، لكن هناك حدث ما غير هذه النية؛ فقد أخبرني موظف الخدمة أن شخصاً اسمه مروان اتصل على الفندق من أجلي، وترك لي رقم هاتفه، فتذكرت بالحال أنني قد كتبت لزميلي السّابق في الدراسة (إيميلاً) أخبرته فيه عن الزيارة التي سأقوم بها لبلاده، وتركت له عنوان الفندق الذي سأنزل فيه. حدثته بعدها هاتفياً، وأخبرته بعدم وجود فرصة لالتقي؛ لأنني سأعود لبلادي، وشرحت له الموقف الذي شاهدته في المتحف، اقترح عليّ أن أوّجل السّفر، وأن أترك الفندق، وأتوجه إلى زيارته في قريته، التي لم تكن بعيدة عن المدينة التي أقيم فيها، وما زال بي حتى غير قناعاتي.

في اليوم التالي وصلت تلك القرية، لم يكن فيها شيء مميز يمكن أن أحدثك عنه، أزقة ضيقة غير معبدة بشكل جيد، وبيوت حجرية محصنة بالحبس، أو أبنية أسمنتية ترتفع بمعدل طابقين إلى ثلاثة، نوافذها واسعة لكنها غير محكمة، معظم البيوت لها أسوار من الحجارة المرصوفة من غير أن يكون لها بوابات. أما تلك التي لها أبواب، فقد كانت إما من الحديد الخفيف أو الخشب الرديء. لكن الهواء كان ألطف، وأشعة الشمس أقل حدة، ولم تكن القرية مكتظة بالسّاكنين، فكانت الشوارع معظم الوقت فارغة، لا يمر فيها إلا العدد القليل من الأفراد، ولا يسمع المرء فيها ذلك الصّخب المميت الذي تفور به المدينة. سعدت برؤية صديقي القديم، الذي أحاطني وعائلته بحفاوة شديدة، فشعرت بالأنس وسرّي عن نفسي، فغادرتني تلك الوحشة، لكن ما أن انقضت عدة أيام حتى ابتليت بالضجر والملل، فكل شيء كان هادئاً، الزمن يمر ببطء

وتثاقل كأنه رجل عجوز، والإحساس بالوقت معدوم كأنه بضاعة كاسدة تباع بالجملة، فلو أراد شخص ما زيارة آخر، يقول له: آتيك في المساء أو في الصباح، دون تحديد الساعة بدقة، فمجال الوقت مفتوح وكأنه بحر لا ترى شواطئه! وتحديد الموعد بدقة لا يمنع من وجود هوامش تتحرك بمرونة على حافتيه، كأنها رمال قفار تعودت أن تهجر ديارها بيسر مع هبوب كل ريح، وتلك الساعات التي يحملها هؤلاء الناس تكون لتزيين المعصم أكثر مما هي لضبط الوقت. هنا لا توجد مقاهي ولا بارات، لا مسارح ولا مراقص، لا أندية ولا مراكز ثقافية. المتعة بالنسبة لأولئك القرويين مختزلة في ثلاثة أشياء: التبغ والشاي ولعب الورق. وبعضهم أضاف إلى ذلك مشاهدة الأخبار أو البرامج الخليعة في (الستالايت)، والآخر نظيرها في (الانترنت) الذي يعمل بمقاييس السلحفاة، ويمر عبر غرابيل معدة ثقوبها بمقاييس النمل الأحمر. يمكن أن يتعب أولئك الناس من أي شيء في الدنيا إلا من الثثرة. السعادة مقيدة لديهم بالبساطة، والصعوبات المعقدة تتولد لديهم من أشياء تبدو لنا في غاية التفاهة. فربما يخاصم أحدهم الآخر لشهور؛ لأنه اختلف معه في لعبة الورق. وربما يضرب أحدهم الآخر ضرباً مبرحاً؛ لأنه نظر إلى فتاة تطل من نافذة. ويمكن أن تندلع معركة شرسة يتراشق فيها حيان كاملان بالحجارة؛ لأن طفلاً دفع طفلاً آخر وهما يلعبان في المدرسة. عندما كنت أستمع إلى أحاديثهم كان يخيّل إليّ أن التفاهم بينهم مستحيل، فهم يتكلمون مع بعض في نفس الوقت بشكل عشوائي، وبمواضيع تكاد تكون مختلفة جذرياً، ويصعب أن ينتهي الحديث من غير مشاحنات شخصية بينهم، ويمكن لأحدهم أن يتنازل عن جميع ما يملك، لكن لا يمكنه أن يغير من قناعته أو يقر بخطأ وجهة نظره. يوجد في قواميسهم كلمات ومرادفات تعبر عن جميع حالات الألم والفرح باستثناء حالة الاعتذار عن فعل الأخطاء، ففيها تبقى المشاعر حبيسة الصدر، لا يترجمها النطق؛ لأن التصريح بها في عرفهم قدح بالكرامة الشخصية، لذلك فإن كلمة الأسف على لسان أحدهم أثقل من صخرة صماء. والذي يكون على صواب مرة سيعتبر نفسه أنه دوماً كذلك. وإن تجرأ أحدهم واعترف مرة أنه أخطأ فهذا يعني أنه سيبقى دائماً في المستقبل على خطأ من وجهة نظر الآخرين في أي رأي يقوله. فالغريزة والعاطفة تطغى عندهم على العقل والمنطق، والألوان لديهم سوداء أو بيضاء، حقيقة أو ضلال، شر أو خير، نور أو عتمة، ليس لديهم حلول وسط، بل ليس لديهم القدرة على تصور وجودها. تماماً مثل تقسيمهم الديني: مؤمن وكافر، مهتدي وضال، جنة ونار، فوز وخسارة. مذهبهم في رؤية الأشياء يذكرني بالزرادشتية، إله النور وإله الظلام، وحرب مستعرة بينهما، لا هوادة فيها أو توسط. تعلمهم للأشياء يشبه طريقة الموسوعات، تزعم بأنها تلم بكل شيء وهي بالكاد تذكر عناوين المواضيع، لذلك تجددين أنهم سطحيون بشكل يثير الدهشة. سبرهم للحقائق لا يعدوا ملامسة ظاهرها الخارجي. أما عن مزاعمهم في معرفة كل شيء فلا حدود لها، حتى يصعب تمييز مهنة أحدهم أو خبرته، فجميعهم يعرفون بشكل أو بآخر حول كل الأشياء نفس الأشياء، فيمكن لبائع الأحذية أن يناقش في المسائل الطبية، ويمكن للطبيب أن يتاجر بالعقارات، ويمكن للأستاذ الجامعي أن يعمل ببيع الخردة، ولبائع الخضار أن يعمل صيدلانياً، وللمعلم أن يعمل سائق سيارة أجرة وهكذا...! علاقاتهم تقوم في مجملها على أساس النفاق الاجتماعي، وتبلغ المجاملة

الجوفاء بينهم أحياناً حد التورم والانتفاخ، كأنها جيفة متعفنة لا ينتفع منها بشيء، بل هي مصدر أذى وضرر. فقد يكون أحدهم في غاية التعب والإرهاق ولا يجزئ على مصارحة ثقله الظل من زواره، فيبتسم في وجوههم ويسايرهم حتى ساعات متأخرة من الليل، ويمكن للفقير المعدم أن يتظاهر بالغنى فيسرف بالتبذير، حتى يخرج الدائنون من بيته. وقد أخبرني مروان أنه يتوجب على أحدهم أن يزور الآخر في أي مناسبة وهو يحمل هدية مكلفة، مهما كانت المناسبة تافهة، حتى أن الهدية ذاتها قد تنتقل بين بيوت عدة حتى تعود بعد سنة أو سنتين لصاحبها الأول، فلا ينتفع منها أحد، بل يذهب ثمنها سدى، ولا تكون سوى (برستيغ) لمظهر اجتماعي زائف.

إن إقامتي في تلك القرية كانت تعكس هذا الذي وصفته لك، فقد كنت في كل يوم مساءً أذهب برفقة مروان إلى بيت أحد أقاربه، حيث نجتمع على شرب الشاي ولعب الورق والتدخين والثرثرة حتى منتصف الليل، ومعظم الذين كنت أساهرهم كانوا من المتعلمين الذين حصلوا على وظائف حكومية؛ حيث كنت أشاهدهم في الصباح المتأخر يذهبون بتناقل إلى أعمالهم، وعيونهم محمرة متورمة من طول السهر، ورائحة أفواههم منتنة من كثرة التدخين، لا يعرفون شيئاً عن القراءة أو الكتب، لا يوجد في بيوتهم سوى بعض الكتب والكراسات المدرسية، بالإضافة إلى بعض الكتب الدينية، ليس لهم نصيب من العلم والفلسفة، أو الأدب والفن، سوى ما مروا عليه بصورة ببغاوية في جامعاتهم، أو تنف يتلقونها من وسائل الإعلام. طموحاتهم في الحياة متواضعة جداً، ليس للمستقبل نصيب من أحلامهم وأحاديثهم، عيونهم مثبتة في أعقاب رؤوسهم، لا يستطيعون مشاهدة الحاضر إلا من خلال نافذة الماضي، مسكونون بشبح التاريخ والتراث والتقليد. المحاكاة لديهم مقدسة، والإبداع والاختراع ليسا أكثر من بدعة ضالة، علاقتهم بالأشياء مقلوبة رأساً على عقب، كنظام بطليموس في دوران الشمس حول الأرض، فاللباس والأدوات تعطي الإنسان القيمة بدلاً من العكس، لذلك تجدنيهم ينفقون معظم ما يملكونه على الثياب والأجهزة. فقد رأيت موظفاً صغيراً يشتري بمدخراته لمدة عام كامل هاتفاً محمولاً حديثاً جداً، وهو لا يستطيع أن يدفع فواتيره الشهرية، وذلك فقط حتى يُنظر إليه على أنه شخص له قيمة، فهو يستمد قيمته من الأداة التي يحملها، وقد يتحول الهاتف من وسيلة إلى غاية، ومن تابع وخدام للإنسان إلى متبوع ومخدوم. كذلك شاهدت شخصاً يمتلك سيارة فاخرة، فأخبروني أنه عامل في سوق الخضار، باع حلي زوجته؛ ليدفع سلفة مقدمة من ثمن السيارة، ثم سوف يسدد الباقي كأقساط شهرية مجموعها يساوي دخله لسنوات، والغريب أن هذا الشخص لا يحتاج تلك السيارة في عمله بشيء سوى الرغبة في التفاخر على الآخرين، والسعي للحصول على قيمة اجتماعية أكبر من قيمته الحقيقية.

ماذا أخبرك يا عزيزي؟ لقد رأيت من أحوال هؤلاء الناس العجب العجائب، أشياء تثير الدهشة، تخيل أنه من المعيب أن يمارس أحدهم الرياضة أمام الآخرين. والرياضة بجد ذاتها لا وجود لها في حياتهم، في حين أنها عادة مقدسة في حياتنا، حيث ترين في الصباح الباكر أرتالاً من الصغار والكبار نساءً ورجالاً يهرولون في الأماكن العامة والحدائق. وعندما خرجت في الصباح أجري في إحدى أزقة القرية لحق بي جمع غفير

من شاهدي، وهم في حالة من الانفعال والتوتر، وقد أمطروني بالأسئلة إن كان قد حدث خطب ما؟ أو إن كنت بحاجة إلى مساعدة ما؟ لم أفهم ذلك بداية، لكنهم شرحوا لي فيما بعد أن الرجل لا يجوز له أن يركض في الطرقات إلا في المصائب وحالات الاستغاثة والنجدة!

عندما كنت أذكر مروان بأنه عاش ودرس لفترة طويلة في الغرب، فلماذا لا ينتقد هذه العادات السلبية، بل يتماهى معها، كأنه لم ير ما هو خلافها؟ كان يضحك من غير مبالاة، كأنه لا يهتم بشيء، ويقول لي: إن هذه الأشياء لا يمكن تغييرها، وهي الشيء الوحيد الذي يمتلكه الناس هنا، وتغييرها يعني اقتلاعهم من جذورهم، وتركهم في مواجهة التيار ليجرفهم إلى الهاوية! لكن لم أفهم ماذا كان يقصد زميلي بالهاوية؟ وماذا يمكن أن يسمى الحالة التي تردى إليها مجتمعه إذا؟!

مرّ عليّ أسبوعان في تلك القرية، وكل ما حدثتكَ عنه لم يكن لينسني ألم ما شاهدته في المتحف، لم أستطع فهم تلك الإساءة لعشتار، ولم أفهم ما هو المبرر لذلك السلوك. وقد سألت مراراً مروان وزملاءه في سهراتهم الغبية عن تفسير لهذا الأمر، فلم يفيدوني في شيء سوى السخرية والاستهزاء بما حدث، وعندما أحسوا أنني أتعامل مع هذا الموقف بشكل جدي، وأني لا أقبل المزاح فيه، أخبروني بأنهم لا يستطيعون أن يعرفوا سبب تصرف العامل في المتحف على هذه الطريقة، لكن يوجد شخص في القرية هو الوحيد الذي يمكنه أن يفسر لي هذا الموقف، اسمه سامر. طلبت من مروان أن يأخذني إليه في الحال، فاعتذر بأنه لا يمكننا الآن مقابلته؛ لأنه ينام باكراً، والساعة كانت التاسعة مساءً، فاستغربت، هل يوجد في القرية شخص لا يطيل السهر ما عدا الكهول؟ ثم ماذا يعني أنه نائم؟ فقد رأيتهم يزعمجون بعضهم بعضاً دون أي تورع، فيمكن بسهولة لشخص أن يوقظ شخصاً آخر في أي وقت من أجل أي شيء من السّفساف!

كان جوابه أنّ سامر يختلف عن بقية أهل القرية؛ فهو شخص صعب المراس، شديد الصرامة في تعامله مع الآخرين، لا يتطفل على أحد، ولا يسمح لأحد أن يتطفل عليه، مهما كان هذا الشخص قريباً منه! قلت: حسناً، إذاً نلتقي به غداً في الصباح.

وفي اليوم التالي تأخر مروان كعادته في النوم حتى الساعة العاشرة، وما أن رأيتُه حتى ذكّرته برغبتي في الذهاب إلى ذلك الشخص، لكنه أخبرني أن سامر يستيقظ مع شروق الشمس، ويذهب إلى عمله، فلن نتمكن من رؤيته الآن. قلت له: نذهب إليه في عمله، فقد شاهدتكم تفعلون ذلك مع بعضكم من غير حرج، فانتفض صاحبي كأنما رأى عفريتاً، وأخبرني أن العمل عند سامر مقدس، وأنه يفضل أن يحمل على ظهره الأحجار الثقيلة على أن يذهب إليه وقت العمل ويتعرض لتعنيفه الشديد!

لم أكن أصدق أنه يوجد في القرية مثل هذا الشخص، فازداد فضولي لمقابلته، فقلت إذاً نراه في المساء، عندما تعود من وظيفتك، ويعود صاحبنا من عمله!

كانت ساعات النهار الصّيفي تمر عليّ ببطء شديد، لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل بها، فنظرت إلى رفوف صغيرة مثبتة في إحدى زوايا الحجرة، فوقعت عيناى على كتيب صغير بعنوان "فتح المندل"، استهوتني الخرافات التي يحتويها عن قصص الجن وتسخيرهم، فأعاد إلى ذاكرتي الأحلام القديمة التي كانت تراودني في

مرحلة الطفولة عن أجواء الشرق السحرية والقصص الغريبة التي تحدث في هذا العالم، فأخذت أقطع التهار بتقليب صفحاته، حتى عاد مضيئي من عمله، فأمهلته حتى أخذ قسطاً من الراحة، وتناول طعامه، ثم طلبت منه أن يأخذني لذلك الشخص، لكنه استمهلني حتى يتصل به هاتفياً، ويسأله إن كان يستطيع استقبالنا. وعندما اتصل به أخبره بأنه قد خصص هذا المساء للمطالعة، لكنه يعطينا موعداً في مساء اليوم التالي.

كانت هذه الإجابة بمثابة الصاعقة بالنسبة لي، هل يوجد في هذه القرية بعد كل ما شاهدته من الفوضى اللامحدودة في العلاقات والعادات شخص يفرغ جزءاً من وقته للمطالعة، ولا يقابل الآخرين إلا بموعد مسبق؟! كان أمراً محيراً، ترى من هذا الشخص؟ هل هو رجل لديه حكمة أو شيء من هذا القبيل؟ لكن مروان ضحك كعادته عندما لا حظ علامات الاندهاش على وجهي، وسمع تساؤلاتي حول هذا الشخص، وقال لي: إن سامر ليس إلا موظف حسابات عادي يعمل في الجمعية الزراعية! كان يعتقد أنه بإجابته هذه يسهل علي الأمر، ولم يدر أنه زاد من فضولي وحيرتي، فكيف سيفسر لي موظف الحسابات الموقف الذي حدث في المتحف؟! حدث في المتحف؟!

في تلك الليلة لم أشعر بالرغبة في مرافقة مروان إلى السهرة المعتادة، فقد مللت من الترهات والتفاهات التي يتم بها قتل الوقت، وبخاصة أنني وجدت أخيراً ما يستحق الاهتمام في هذه القرية! سامر... ترى من يكون هذا الشخص؟ وكيف استطاع أن يبني لنفسه موضع قدم ثابتة وسط هذه الرمال المتحركة، حتى صار له كل هذه الخصوصية والمهابة في أعين أهل القرية؟ ولماذا يعتقد مروان وزملاؤه أن موظف الحسابات هذا وحده قادر على إجابتي عن سؤالي؟!

كل هذه الأسئلة كانت تمنع النوم من الوصول إلى جفني، فعمدت إلى جهاز (الكمبيوتر) القديم الذي سمح لي مروان باستخدامه، وحاولت الاتصال بشبكة (الانترنت) لفترة طويلة، وعندما نجحت في ذلك أردت محادثتك عن طريق برنامج (الماسينجر)، لكن قدرة تحميل (الانترنت) كانت ضعيفة جداً، فحرمت من سماع صوتك الحنون، غير أن طيفك يا غاليتي لم يفارقني أبداً، فكنت أحادثه وأسأله، حتى دخلت في طقوس النوم، ولم أعد أعي شيئاً، حتى استيقظت في الصباح على صوت أحد الديكة.

جاء مساء ذلك اليوم، وحان موعد ذهابنا لمقابلة سامر، فرأيت صاحبي يخرج علبه (السجائر) من جيبه، ويتركها على الطاولة قبل خروجنا من منزله! استغربت فعله، فمنذ عرفته في الجامعة وعلبة (السجائر) لا تفارقه ولا يفارقها، حتى أنه قد تجتمع في جيوبه علبتان في نفس الوقت. سألته عن ذلك، فأخبرني أنه لا يجرؤ على التدخين بحضور سامر، الذي يرفض بأي حال من الأحوال مجالسة شخص وهو يدخن، حتى لو كان رئيسه في العمل!

تبادر إلى ذهني هذا الرجل على هيئة متدين ملتحي، شديد التعصب، غليظ الوجه، جلف الطباع والأخلاق، فخشيت أن يسيء معاملتي لكوني أجنبياً ومسيحياً؛ إذ إن لي تجربة ليست جيدة مع بعض المتعصبين، فأخذ قلبي يدق نواقيس الحذر، ونسبة (الإدرييناليين) ترتفع شيئاً فشيئاً في دمي كلما تقدمنا خطوة باتجاه

منزل سامر. عشر دقائق من المشي السريع، كنا بعدها أمام بابه، قرعنا الجرس، فخرج إلينا شاب في العقد الرابع، ربعة، يميل إلى الطول، بمنكبين عريضين، وجسم ممتلئ، وعضلات بارزة، وبشرة متقمحة، وشفتين تفاحيتين جميلتين، وعيون عسلية تميل إلى الاتساع أكثر من كونها صغيرة، وقد غزا الصلح مقدمة رأسه من غير أن يخل بمظهر جبهته العريضة الناصعة، كانت لحيته السوداء القصيرة مصفوفة بعناية، وشاربه مهذب بدقة، عندما ظهر إلينا وهو يرسم ابتسامة مشرقة على فمه خُيل إليّ أنه القمر حين طلوعه في ليلة معتمة، فما أن رأيته حتى هجرتني جميع وساوسي ومخاوفي، كما يطرد نور القمر أشباح الظلمة. رحب بنا بلطف وحفاوة، وأدخلنا إلى غرفة الضيافة، فأدهشني ما رأيته، كانت رفوف الكتب تملأ جداراً كاملاً من الحجرة، وتمتد من أسفل الجدار حتى تلامس السقف، لم أستطع منع نفسي من فضول التعرف على عناوين ما تحتويه مكتبته، فأخذت نظرة سريعة وأنا أقرب من المكان الذي وضعت فيه الأريكة، فكان مما شاهدته، كتباً في فن البرمجة العصبية، وتنظيم الحياة، وتطور المجتمعات، ونشوء الحضارات، وعلوم الإدارة والحسابات، ذلك النمط من الكتب الذي هو حديث الساعة في قاعات البلدان المتقدمة.

حدثنا سامر لساعة بعد أن عرفه مروان بي، وأخبره عن محبتي للشرق، ومعرفتي الواسعة بتاريخ حضاراته القديمة وثقافته ولغاته، وتقديري لمكانته التاريخية والدينية، فلا يكاد يوجد موضع قدم في هذه الأرض إلا ومشى فيها نبي أو قديس أو حكيم. كان مضيفنا شديد اللطف، لين الجانب، مرح النفس من غير ميوعة أو استهتار - كما كان حال من عرفتهم من أهل القرية - فكانت شخصيته مخالفة لكل تصوراتي التي بنيتها في اليومين السالفين حوله. وقد فهمت الآن سر المهابة التي يشعر بها أهل القرية تجاهه، إنه شخص يحترم الآخرين، فلا يستطيع الآخرون في المقابل إلا احترامه! ثم قصصت عليه ذلك الموقف الغريب الذي حدث معي في المتحف، وسألته إن كان يستطيع تفسير ما جرى؟ فأجابني بكل تواضع: أنه غير متخصص بعلم الآثار، وليس لديه خبرة بتحليل سلوك الناس من الناحية النفسية، فما هو إلا موظف حسابات، وخبرته بالمقام الأول تدور في فلك الأرقام والمعادلات، وهو لا يزور المدينة إلا عند الضرورة، لكنه يستطيع فقط من خلال الخبرة كأحد أفراد هذه القرية أن يفهم سلوك ذلك العامل. قلت له: لكنني حدثتك عن مشاهداتي لسلوك الناس في قريتك، ولم أستطع إيجاد تفسير لذلك السلوك أو إيجاد شبيه له، فلم يحاول أحد من أهل القرية أن يسيء إليّ، بل بالعكس تماماً الجميع كانوا في غاية اللطف معي!

قال لي سامر: لقد تسرعت قليلاً في الحكم، ألم تقل إنك شاهدت الفقير يشتري الأجهزة الغالية حتى يحصل على احترام الآخرين؟! قلت: بلى! فأجابني: إذاً ذاك هو، إن احترام الإنسان لنفسه شيء ينبع من داخله، فإذا شعر الإنسان باحترامه لنفسه استطاع أن يخلعه على الأشياء من حوله، وإذا لم يجده في داخله بحث عنه في خارجه، ربما وجده في جهاز الهاتف المحمول، أو في حذاء يحمل (ماركة) مشهورة، وبذلك يحدث المسخ في علاقته مع محيطه.

أما حالة عامل النظافة الذي رأيته في المتحف فهي أكثر خطورة، إن الإنسان عندما يبحث عن شيء في خارجه ليستمد منه قيمة أو يجعله محترماً، فذلك مؤشر على أنه لا يزال يشعر بإنسانيته، وطالما أنه إنسان

فهو يحتاج أن يكون محترماً، وبالتالي يبحث عما يحقق له هذه الغاية في الأشياء التي تحيط به، لكن هذا الإنسان إذا كان لا يزال يشعر بتفوقه على الأشياء، في الوقت الذي يعطيها المجتمع قيمة أكبر من إنسانيته، فإنه قد يلجأ - كنوع من الاحتجاج - إلى السخرية من تلك الأشياء بالتمرد على سلطانها، أو بإلحاق التلف بها والعبث بقديسيته. كيف لا، وهي تسلب منه قيمته، التي يوقن بأنها في جوهرها أئمن من تلك الأشياء، فما بالك إذا بالشخص الذي حرم حساسية الشعور باحترامه لنفسه، بعد أن فقد الشعور بقيمته كإنسان؟ فمن باب أولى ألا يقيم وزناً لشيء، مهما كان ذلك الشيء له قيمة أو دلالة تاريخية أو ثقافية، فتجده مستهتراً، ولا مبالياً، همه من الدنيا أن يأكل ويشرب ويلعب وينام، وذلك أقصى أمانيه، فيضمحل تأثير عقله على سلوكه، وتطغى عواطفه وغرائزه، فتضيق بذلك المسافة الفاصلة بينه وبين الكثير من السوائب والأنعام. ربما تجد في هذا الكلام شيئاً من التعقيد والغموض، لكنني أعتقد أنك بعد أن قضيت فترة جيدة في قريننا، وشاهدت سلوك أهلها، ستستطيع فهم ما أحاول شرحه لك. ببساطة إن إحساس الإنسان بقيمته الذاتية يمكنه من خلع القيمة على بقية الأشياء التي تحيط به! ولو أنك حولت اهتمامك في المتحف من عشتار (الحجر) إلى عامل النظافة (الإنسان) لرأيت أن سلوكه تجاهك، وكذلك تجاه الحجر سوف يتغير جذرياً؟!

أجبتك: إنك حقاً يا أستاذ سامر تلخص بهذا التفلسف تجربتي في قرينكم، وتجب عن سؤالي حول ما حدث في المتحف. وهذا ما لم أجده عند صديقي مروان وزملائه، الذين يمضون أيامهم في السهر ولعب الورق والتدخين بصورة محبطة، بدلاً من السعي لفعل الأشياء المفيدة. أعتقد أنني بعد سماع هذا الكلام منك لا أحتاج أن أسأل المزيد عن سبب تصرف عامل النظافة في المتحف، وكذلك لا أحتاج أن أبقى مدة أطول في قرينكم، وأعتقد أنك يا سامر سوف تستطيع إعادة المعادلة إلى نصابها الصحيح في نفوس أبناء قرينك.

في اليوم التالي عدت إلى المدينة، ووضعت هذه اليوميات في مغلف؛ لأرسله لك، فأنا أعلم أنك - كعادتك يا مدلتي الغالية - قد جهزت لي قائمة طويلة من الأسئلة حول رحلتي هذه، وأنتك ترغبين في معرفة كل صغيرة وكبيرة عن مغامرتي بزيارة الشرق، فأردت أن تسبقني هذه الرسالة إليك، كي أرتاح من عبء الإجابة عن الأسئلة الكثيرة عندما أقابلك، وأفترغ فقط للاطمئنان عليك، فأنت لا تعلمين كم أنا مشتاق لرؤيتك؟ وكم أشعر بافتقادي لك خلال الأسابيع الثلاثة الماضية؟ فإلى لقاء قريب في برلين ... ودمت يا حبيبتي بخير وسلام.

المخلص (ماتياس)

الصخرة السوداء

في الحادي عشر من تشرين الأول، وفي الصباح الباكر، عندما كانت الشمس الخريفية الخجولة تعلو السماء ببطء على أجنحة من الغمام الندية، في حديقة الجامعة كان لقاءهم الأول، عندما أوصلها والدها بسيارته إلى مدخل الجامعة، كان الوقت لا يزال باكراً على موعد المحاضرة الأولى، وعندما سارت في البهو المفضي إلى الحديقة، كان عمار يراقب خطاها الوثيدة بعناية شديدة، وعندما شعرت به أسرع بتحويل بصره عنها، لكن بعد برهة من الوقت عاود اختلاس النظر إليها من جديد، فوجد أنها لاتزال تنظر إليه، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتجرأ فيها بتصويب النظر مباشرة إلى عينيها، في هذه المرة بالذات وجد في نفسه الرغبة والشجاعة في أن يطيل التحديق في عينيها، أو - كما وصف هو ذلك فيما بعد - الإبحار في عينيها الجميلتين، اللتين طالما وصفهما بأنهما بحر عظيم الاتساع، وليل مليء بالأسرار. وعلى الرغم من أنها أثارت اهتمامه وسلبت قلبه منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها في إحدى المحاضرات، فإنه لم يحاول أو يتجرأ على أن يبادر بالتعرف عليها؛ فقد كان شديد الحياء، وعظيم الحرص على إخفاء مشاعره وعواطفه تجاه من يجب، وربما هذا هو السبب الذي جعله يفضل العزلة والانطواء على الذات، الأمر الذي كان يعطي انطباعاتاً خاطئاً عن طبيعته، فبدأ لكثير من زملائه بأنه شخص متزمت، لا يختلط مع الآخرين، وبخاصة زميلاته في الدراسة. على الرغم من أنه كان عميق الإحساس، وجياش العاطفة، وشديد الإيثار، فقليل فقط هم الذين استطاعوا أن يفهموا سره، وأن يجدوا تفسيراً لطبيعته وانطوائه على ذاته، إذ أتى من قرية جبلية صغيرة، لها صخور بركانية ذات لون أسود فاحم، تعطيك انطباعاتاً خادعاً بأنها صماء، لكن في حقيقة الأمر يسري في أعماقها إحساس ملتهب ودفء حميم، ويرتسم على تعرجاتها معالم تاريخ حافل، وتخفي بين طياتها قصصاً مثيرة. في هذه القرية التي تقع على سفح جبل عتيق، وبين هذه الصخور عاش، وترعرع، وتعلم كيف يخفي مشاعره، وينطوي على نفسه تماماً كما تفعل هذه الصخور. لقد تربى تربية دينية صارمة، في بيئة ريفية يحكمها العرف والتقاليد المتزمتة، التي تحرم الاختلاط بين الذكور والإناث بل تحرم أدنى أشكال التواصل، كالحديث العام، أو حتى إلقاء السلام في بعض الأحيان، كل هذه الأشياء كانت راسبة في أعماقه، ومحفورة في جدار صدره، وظاهرة في سلوكه، وإن كان عقله يضج بالآلاف الأسئلة الحائرة حول هذه الدوائر المغلقة التي كانت ترسمها العادات والتقاليد والدين في بيئته الريفية.

بسبب هذه الخريطة المعقدة لشخصيته، وعلى الرغم من أن هذه الفتاة كانت تحظى باهتمامه، وسلبت عقله، وملكت قلبه، فإن معرفته بها - قبل هذه المرة - لم تكن تتجاوز كونهما زميلين في الدراسة، يتبادلان التحية ويختلسان النظرات من بعيد، لكن عندما رآته يطيل النظر إليها هذه المرة أرادت أن تعرف سر هذه النظرة الخجولة، وسر تلك النظرات المسروقة فيما مضى. سارت إليه. واقتربت منه أكثر، وبعد أن ألفت التحيّة انحنت بجسدها الرشيقي، وجلست على المقعد الخشبي المقابل لمقعده، تحت شجرة زيزفون كبيرة،

تشابكت أغصانها بشكل يدعو إلى الدهشة؛ حيث شكلت قبة خضراء وارفة الظلال. كانت إيمان آية في الجمال والروعة، بل إنَّ حُيَّاهَا ليطلُّ من أعلى قوامها كما يطلُّ البدر في الليلة الصَّافية من أعالي السماء. وإنَّها لوردة فواحة بالطيب، تكسو المكان بهاءً أينما حلَّت، تلمح في ملامح وجهها أمارات الفطنة والعقَّة والظَّهارة. في هذه الأثناء كانت ترمقه بعينيهما الواسعتين اللتين جمعت بهما عتمة الليل الفاحم، وبياض التَّلج الناصع.

أشاح وجهه عن الكتاب الذي بين يديه، ونظر إليها بعينيه العسليتين الممزوجتين بلون الربيع فشعَّ منهما سحرٌ خافتٌ أضفاه عليه شعره الأسود المتموج وتقاسيم وجهه الهادئة. ردَّ تحيتها بصوت مبجوح خجول، يخفي بين أمواجه الشوق والعاطفة الملتهبة، ويستر خلف ذبذبات بحته رقصات السعادة لاقتربها منه ولجلوسها مقابله.

عندما نظرت إيمان إلى عينيه عن قرب هذه المرة استطاعت أن تكشف بوضوح بعض أسرار قلبه، فقد كانت قادرة على أن تقرأ بعض الرموز التي ترسلها نظراته إليها، وتفهم ما تخفيه عيناه من بريق دافق بالمشاعر الدافئة، والحنان المترقق بين غيوم داكنة من الحزن والحرمان.

خرجت إيمان من محراب تأملاتها البصرية في فك طلاسم عيني عمار وبدأته، فقالت: من عادي أن أحضر في الوقت المحدد للمحاضرات، لكنني نسيت أن في هذا اليوم سوف يعدل برنامج الدراسة للعمل في التوقيت الشتوي، ولم أتذكر ذلك إلا عندما وصلت برفقة والدي بالقرب من الجامعة، غير أن جمال هذا الصباح جعلني لا أفكر في الندم على نسياني التوقيت الجديد، إنَّ إشراقة الشمس في الصباح بديعة جدًّا، وكذلك منظر حبات التدي المتجمعة فوق الأوراق الخضراء، وهذه الزهور والأشجار ورائحة الصباح المعطر بالطيب والممتلئ بالرطوبة، وتمازج اللسعات الباردة بدفئ حضن أشعة الشمس الخجولة. كلُّ ذلك جميل وأكثر من رائع. ترى هل نسيت أنت كذلك التوقيت الجديد يا .. معذرة أنا لا أعرف ما هو اسمك، رغم أننا زملاء؟! لا داعي للاعتذار .. عمار .. اسمي عمار عبد القادر. في الحقيقة ليس هذا هو السبب الوحيد لحضوري باكراً، فأنا لست من العاصمة، وأتي من قرية تبعد حوالي سبعين كم، فأضطر للقدوم في الصباح الباكر؛ لنشاط حركة المواصلات بين الريف والمدينة في ذلك الوقت، وإذا لم أحضر باكراً سوف تزدهم الطرق الضيقة سيئة التعبيد بالحافلات القديمة، الأمر الذي سيجعل وصولي للجامعة عسيراً. على كل حال أنا أتفق تماماً معك يا آنسة إيمان! في أن هذا الصباح استثنائي في روعته وجماله، أعتقد أنني لن أنساه ما حييت!

قرأت إيمان إعجاب هذا الشاب بها من عينيه، وفهمت ماذا يعني أنَّه قد حفظ اسمها من بين عدد كبير من زميلاتهن في الدراسة. وعلى الرغم من أنها بدأت تشعر بأن بعض نبضات قلبها باتت ترسل خفقات غير معتادة، تحمل بعض الإعجاب لهذا الشاب، فلم يخطر ببالها أبداً في هذا اللقاء الأول - الذي هيئته الأقدار بالمصادفة بينهما - أنَّ هذا الشاب القروي سيصبح عمَّا قريب المحور الأساسي لحياتها، بل ربما سبباً في مأساتها.

توالت الأيام والشهور وتتابعت اللقاءات بينهما تترى بتتابع المحاضرات، فتعرف كل منهما الآخر معرفة جيدة. استطاع عمار بإيمانه وصدقه وبساطته الريفية - إلى جانب ثقافته الواسعة - أن يكتسب ثققتها، وأن يحوز إعجابها. وعندما علمت أنه يعمل إلى جانب دراسته؛ ليتمكن من توفير المصاريف الجامعية زاد ذلك من احترامها وتقديرها له. أما هو فقد وجد فيها الحنان والرقّة التي يفتقدها بسبب طبيعة الحياة القاسية التي عاشها في قريته الجبلية بين شظف العيش، وخشونة التنشئة الاجتماعية في أسرة شديد الفقر، يحكمها الأب بصرامة مطلقة، وبمزاجية معكرة. قال لها في أحد الأيام إنه قبل أن يلتقي بها لم يكن ليستطيع أن يبيث أوجاعه وآلامه ومشاعره إلى أحد في الأرض، سوى لتلك الصخرة السوداء الكبيرة، التي كانت تجثم عند منقطع العمران في سفح ذلك الجبل، لكن عندما جرفت السيول الغاضبة - في إحدى ليالي الشتاء المنتحبة - إلى بطن الوادي، بقي وحيداً يعاني مرارة الحياة ويتألم بصمت. ولم يدرك معنى أن يكون إنساناً قبل أن يلتقي بها، ويستجلي أسرار قلبه في عينيها.

كل منهما كان ينتمي لبيئة اجتماعية مختلفة عن الأخرى، إلا أنّ هذا الأمر لم يمنعهما من أن يحققا الانسجام النفسي والتفاهم العقلي، وأن يخترقا كل الحواجز والدوائر التي تخلقها اختلافات العادات والتقاليد بين أسرة ريفية فقيرة وأسرة مدنية غنية. كل هذه المعوقات لم تكن تعني لهما شيئاً أمام حبهما الصادق ومشاعرهما النبيلة، ماعدا تلك الدائرة التي لم يكن يجروا أحدهما على الحديث عنها، أو محاولة التفكير في كيفية تخطيها. إنها الدائرة المغلقة التي يصعب الإفلات منها؛ فقد كان كل منهما ينتمي لطائفة دينية مختلفة عن الأخرى. رغم أن كلا الطائفتين تنتميان لنفس الدين، فإن كلا منهما يشكل دائرة مقدسة مغلقة على ذاتها، رسمت معالمها الاجتهادات الفقهية والتفسيرية، التي لا تعدو - في حقيقتها - أن تكون إفرازات لمرحلة سياسية تاريخية متحجرة، لكن من يجروا على أن يتخطى حدود هذه الدائرة المقدسة فسوف يحترق بنيرانها، ويصبح زيتاً يهيج لهبها ويسعر حرها. إنها الدوائر التي لا يمكن أن يتخطاها ويعبر حدودها إلا كل مغامر أو مقامر يستطيع أن يراهن بأعلى ما يملك في سبيل أن ينال ما لا يملك. عرف كل منهما هذه الحقيقة المرة، وحسم كل منهما أمره، فقررا أن يخوضا هذا التحدي الخطير، وأن يسيرا في هذه الطريق الوعرة حتى النهايات غير المعروفة. تعاهدا في محراب حبهما الطاهر، وقطعا الأيمان الغليظة على أن لا يثنيهما شيء عن أن يكملا رحلة هذه الحياة معاً، مهما كانت الطريق طويلة وموحشة.

كرت الأيام وتوالت السنون، وأنهايا الدراسة الجامعية، واقتربت ساعة الحسم، الساعة التي يتوجب عليهما فيها القفز في المجهول، ساعة الاختبار التي سوف يمتحن فيها قوة حبهما. قال لوالده بصوت مرتفع مجلجل، وقلبه يرتجف، وأوصاله ترتعد: نعم أريدها زوجاً لي مهما كلف الأمر. قال له والده: كنت أعتقد أنني أحسنت تربيتك، وأنتك تعرف حدود الله جيداً، لكن الذنب ليس ذنبك، بل ذنبي؛ لأنني سمحت لك أن تكمل دراستك في الجامعة، والنتيجة أن فتاة فاسقة تافهة استطاعت أن تسخر منك، وأن تجعل منك ألعوبة حمقاء بين يديها، كان ينبغي أن أجعل منك حماراً يفلح الأرض، كان يمكن أن أضمن أنك لن تعصي أمري، وتشق عصا الطاعة علي، عليك أن تعلم أنك إن تزوجت هذه الفاسقة فلن يكون لك بيننا مكان، وعليك أن

تنسى عندها نسبته إلى. كانت إجابة والده واضحة صريحة، حاسمة تدوي كلماتها في أسماعه كهدير الرعد. إنها الكلمات التي جعلته يشعر وكأنه خر من القمة العليا في هذا الكون إلى الهاوية السحيقة، جميع محاولاته لشني والده عن هذه الإجابة باءت بالفشل، ولم يجن منها سوى المزيد من الإهانات والتجريح، لم يكن والده غير قادر على فهم ما يريد فحسب، بل لم يكن راغباً في أن يفهم أي شيء حول ما يريد. في لحظة واحدة وجد نفسه غريباً وحيداً بين أهله، تخلى عنه الجميع: أسرته وأقاربه. بعض أصدقائه المقربون قالوا له: كنا نعدك فينا الحكيم الرشيد، الذي يفقه موجبات مذهبنا الديني، وكنا نعتقد أنك أكثرنا إيماناً، والآن تفاجئنا بأنك ترغب في الاقتران بفتاة تنتمي لفرقة ضالة، حرفت تعاليم الله، وعطلت أوامره الصحيحة بين ظهرانيها، وأقامت بدلاً منها شرعة فاسدة. قال لهم: إن الله ليس حكراً لطائفة، وإن المعتقد الصحيح لا يمكن لمذهب بمفرده أن يشتمل عليه كاملاً، وإن المذاهب والمعتقدات جميعاً تزعم المزاем نفسها، وإن الله وحده القادر على أن يحكم بينها يوم القيامة. "لا أحد يفعل الشر وهو يعتقد أنه شر"، ولا أحد يعتقد مذهباً يظن أنه مذهب ضال، إلا إذا كان شخصاً غير سوي، فكل المذاهب وكل الفرق لها ما لها من الحجج والبراهين، وعليها ما عليها من الحجج والبراهين. لقد خرجنا إلى الدنيا من بطون أمهاتنا ولم يخبرنا أحد في المذهب الذي نريد اعتناقه، وفي الدين الذي نريد اتباعه، فما هو ذنبنا إن ولدنا وكل منا ينتمي لمذهب مختلف عن الآخر. إنني أعتقد أن حكمة الله أوسع من أن تحصر في مذهب أو طائفة. قالوا له إذاً اجعلها تعتق المذهب الذي نؤمن به وسوف نساعدك على الزواج منها، قال لهم إن الله لم يطلب مني أن أغير اعتقاد المؤمنين به من مذهب لآخر، بل طلب مني أن أترك لكل من يؤمن به مساحة إلى جانبي وبالتوازي معي؛ ليحيا وليؤمن بما يعتقد، والله وحده معني بشأن الحكم بين المؤمنين. قال لهم إنه عميق الإيمان بالله، عظيم الثقة به، وكذلك الفتاة التي أحب مؤمنة طاهرة عفيفة، ولا ضير عنده أن تنتمي لمذهب آخر، وأنه لن يتخلى عنها مهما حدث.

كانت سعادة والدتها لا توصف عندما أخبرتها بأن هناك من يريد الحضور لمنزلهم لخطبتها، لكن ما لبثت أن هجرت أسارير وجهها هذه السعادة، وارتسمت عليه حالة من الدهشة والصمت، عندما استطردت إيمان كلامها بأن هذا الشاب ينتمي لأسرة ريفية فقيرة، وينتمي لطائفة مغايرة لما هم عليه. لم تترك إيمان حيلة لكي تقنع والدتها بشخصية عمار، ولتبين لها شدة تعلقهما ببعض، ولتبرهن لها على صدق مشاعرهما وطهارتها. وبعد تردد كبير تجرأت الأم على أن تصارح زوجها بهذا الشأن، ولم يكن ليخطر على بال إيمان أبداً أن والدها - الذي كان يدللها ويعتني بها أكثر من جميع أشقائها - سوف يكون له مثل ردة الفعل هذه، فقد عَنَّفها كثيراً، وطلب منها أن تنسى أمر هذا الشاب تماماً، وقال إنه لم يكن يتوقع أن ابنته الراشدة العاقلة تريد أن تجلب له العار والخزي بين الناس. وعندما أصر عمار على مقابله ليحاول جاهداً أن يغير من قناعاته، ويبين له صدقه وتمسكه بالاقتران بإيمان، قال له بلغة فيها الوعيد والتهديد: ليس لدينا فتاة

لنزوجك إياها، وإن علمت أنك حاولت الاتصال بابتني بأي وسيلة فسوف أرسلك خلف الشمس، لكي لا يُعلم لك من بعدها أثر في الأرض. وعندما أراد عمار أن يغادر المنزل مغضباً من الإجابة التي سمعها من أهل إيمان اقترب منه شقيقها الأصغر، الذي كان يعمل في أحد فروع الأمن، وأشار إلى مسدس كان يحمله تحت إبطه، ثم همس بإذنه قائلاً له: اسمع، إذا لم تفهم كلام والدي جيداً، وتبتعد عن شقيقتي، وتختفي من حياتها، فسوف أرديك بهذا المسدس قتيلاً، وإني أعني ما أقول.

رغم هذا الوعيد والتهديد التقيا من جديد؛ ليبت كل منهما أوجاعه وحسراته للآخر. اختارا طاولة منفردة في ركن المقهى الجامعي ليجلسا إليها، كانا مرتبكين خائفين، تسبح في عينيها دموع حائرة، وتعلق في جوفهما عبرات يائسة. ثنى كل منهما رأسه، وصوب نظره في جسد الطاولة، ليحدق في نقطة فراغية عميقة، لا يعرف لها قرار، وساد بينهما صمت طويل، قطعه عمار بقوله: وصلني اليوم إبلاغ للالتحاق بالخدمة الإلزامية في المؤسسة العسكرية، وبحركة خاطفة أخرج ورقة التبليغ من جيبه، ورمى بها على الطاولة. ثم هز رأسه بهدوء شديد، ورسم على فمه ابتسامة صفراء يصعب في تلكم الأثناء فهم مدلولاتها ومعرفة محتوياتها. قالت إيمان بحرقه شديدة ساخرة: كان هذا تماماً ما ينقصنا الآن؛ حتى تكتمل خيبتنا، وتحترق آخر شموعنا. بالأمس أقسم والدي أنه سوف يزوجني لأول شاب يتقدم لخطبتي من طائفتنا، والآن عليك الالتحاق بالخدمة العسكرية لمدة عامين، ولا أدري إن كنت سوف أستطيع الوقوف بمفردي في وجه رغبة أهلي إن تقدم لي من يخطبني خلال غيابك. أنا لا أتخيل كيف سيكون شكل الحياة بدونك؟ هم أقسموا أن يزوجوني بغيرك، وأنا أقسم أنهم إن فعلوا فسوف أقتل نفسي؛ لأتخلص من هذه الحياة الظالمة، ومن هذه القسوة اللا محدودة.

هدئي من روعك يا إيمان، فلن نسمح لهم بأن يباعدوا بيننا، مهما كلفنا الأمر. لقد أغلقوا جميع الأبواب في وجهينا، ولم يبق لنا سوى أن نكسر هذا الطوق الظالم الذي فرضوه علينا، ونسير باتجاه المغامرة الكبرى، التي سنتخطى بها حدود هذه الدوائر الوهمية، سنجعلهم يرضخون لإرادة قلبينا، ولصدق مشاعرنا، دعينا نتزوج رغم إرادتهم، ونعيش مستقلين عنهم، نبني عشنا بعيداً عن تسلطهم، وجبروتهم. ربما ستكون حياتنا في بداية الأمر قاسية، لكن بصدق عزيمنتنا وإخلاصنا، سوف نستطيع تحقيق جميع أحلامنا، فهل أنت مستعدة لخوض هذه المغامرة معي؟

نعم أنا موافقة على هذا الحل، رغم أنني أعرف تماماً مصير السمكة التي تغادر دائرة الماء، فإنني سأتبعك حتى لو طلبت مني أن نسافر إلى أقصى الدنيا، المهم عندي أن نبقى معاً، سوف أبيع ما أملكه من حلي؛ ليساعدنا في أمر المصاريف أول الأمر.

وبعد أسبوعين من هذا اللقاء استطاع عمار أن يستأجر شقة صغيرة في أحد الأحياء الشعبية الفقيرة في العاصمة، ودفع الإيجار لمدة ستة شهور مقدماً من ثمن ما باعتته إيمان من حلي، ثم بعدها بأيام قليلة تزوجا بصورة عرفية، وليست قانونية؛ لأن الزواج القانوني يشترط موافقة ولي الزوجة. وعندما حانت اللحظة

الحاسمة، تركت إيمان قصاصة ورق لأسرتها كتبت فيها تقول: لقد سمعت نداء قلبي، وسافرت مع من أحب.

أرخی الليل سدوله، واحتجب القمر خلف سحيف من الغيوم الداكنة، وجالت الريح الباردة يملأ أزيزها الطرقات المعتمة، في ذلك الحي الفقير الذي يقع على أطراف المدينة، وفي تلك الشقة الصغيرة رثة الأثاث، اجتمعاً معاً؛ ليقضيا ليلتهما الأولى بعيداً عن أسرتهما. كان يمكن للمرء أن يجد في المقابر فرحاً أكثر من تلك الشقة البائسة؛ إذ جلسا هناك وحيدين خائفين، بين جدران صماء، لا يسمع فيها غير ترددات أصداة خلجات قلوبهما، وانتحاب دموع ملتهبة طفحت بها مقلتا إيمان. إنها ليلة زفاف لعروسين بعمر الورد، لكنها ليست ككل ليالي الأعراس، فلا أزهار ولا أهازيج ولا أهل ولا أصحاب، بل خوف وفزع من مستقبل مجهول. كانت إيمان تحلم - مثل بقية الفتيات - أن ترتدي في ليلة زفافها فستان عروس أبيض مطرز بخيوط مذهبة، ووشاح موشى بألوان مزركشة، مشكول بالياسمين، وتتعطر بأجمل الطيب، وتزين بأفخر الحلي؛ لتزف إلى حبيبها في أجمل هيئة وأبهى صورة. لكن قسوة الحياة وظلم البشر سرقا منها حلمها البريء، ولم يبق لها منه إلا ما تبقى الأوهام من السراب.

كان شهرهما الأول معاً يغص بمرارة فراق الأهل والخوف من المستقبل، إلى أن ظهر في الأفق بصيص أمل، عندما حصلت إيمان على عمل كمدرسة في إحدى مدارس الحي الذي يسكنان فيه، لكن بعدها بقليل اضطر زوجها إلى أن يلتحق بالخدمة العسكرية، في مدينة تبعد عن العاصمة حوالي ثلاثة ساعات سافراً متواصلاً بالقطار، كان ينبغي عليه أن يتغيب عن زوجته لمدة ثلاثة أسابيع من كل شهر، يستطيع في نهايتها الحصول على إجازة لمدة يومين، ثم يلتحق بعدهما بقطعته العسكرية من جديد.

في هذه الأثناء كانت عائلة إيمان تعيش ظروفاً مريرة، وتشعر بحمل ثقيل من الحزي والعار بين الأقارب والمعارف، وأصبح والدها وأشقائها يتجنبون الحضور في المناسبات العامة؛ كي يهربوا من أسئلة اللائمين ونظرات الشامتين. شعر والدها بأن ابنته بفعلتها قد خدشت كرامته، وعرضته للتعنيف الصارم من أبناء طائفته، مما اضطره للإعلان مراراً أنه قد تبرأ منها، ومن جريمتها النكراء، وأنها لم تعد ابنته، وأكد أنه لا يريد أن يرى وجهها مرة أخرى، ولا أن يسمع عنها أي شيء، وأقسم أنه إن رآها سيقتلها شر قتلة. في حين أصبحت أمها مقرورة الحال على فراقها حاضرة الدمعة على مصيرها المجهول.

كان عمار - في الأسابيع التي يمضيها في الخدمة العسكرية بعيداً عن زوجته - يتصل بها كلما سنحت له الفرصة؛ ليطمئن عليها. في كل مرة كان يقول لها: إنه يشتاق لها كثيراً، وإنه يعد الأيام والساعات والثواني المتبقية لموعد الإجازة؛ لكي يتمكن من رؤيتها. كانت إيمان تضحك عندما تسمعه يقول ذلك، إلا في هذه المرة، عندما اتصل عليها في مساء يوم الجمعة، وقال لها: إنه يحبها ويشتاق لها كثيراً، صمتت لبرهة، ثم أجهشت بالبكاء، وعندما سأها عن سبب بكائها قالت له: إنها أيضاً تحبه وتشتاق لرؤيته كثيراً.

بعدها بأيام - في صبيحة يوم الثلاثاء - وصلت برقية مستعجلة إلى الكتيبة التي يؤدي بها عمار خدمته العسكرية، تؤكد على ضرورة حضوره الفوري إلى مركز التحقيق الجنائي في العاصمة لأمر مهم. عندما

وصله الأمر قبض صدره، وتذكر بكاء زوجته فأصابه القلق، وسرى في أوصاله خوف شديد، وتدافعت الهواجس على تفكيره.

بعد ساعات من السفر المتواصل كان عمار يقف في غرفة أحد ضباط التحقيق الجنائي في العاصمة، الذي لم يترك له فرصة الاستفسار عن سبب هذا الاستدعاء الفوري، بل عاجله بالسؤال إن كان قد استأجر شقة في أحد الأحياء الشعبية المحيطة بالعاصمة، وذكر له عنوان شقته، فأجابه عمار بتأكيد هذه المعلومة، وقال له: إنه استأجرها بصورة قانونية، ودفع أجرتها مقدماً لمالكها ستة شهور، وأنه يملك عقد الإيجار، لكنه لا يحمل معه الآن؛ لحضوره الفوري من كتيبته، فإذا بالضابط يسأل عمار من جديد عن علاقته بالمرأة التي تسكن معه في الشقة، فأجابه عمار: إنها زوجتي. فطلب الضابط منه الإثبات، فأبرز له عمار وثيقة عقد الزواج، فقد كان يحمل نسخة منه في محفظته. قال له الضابط: إن هذا عقد زواج عرفي، لماذا لم تسجل زواجك في المحكمة؟! فأخبره عمار قصته بإيجاز، ثم طلب معرفة سبب هذا الاستدعاء الفوري وسبب هذه الأسئلة. صمت المحقق لبرهة من الزمن، ثم نظر إليه بتفرس شديد، فلاحظ عليه علامات الإنهاك والإعياء، فطلب منه أن يجلس على الكرسي الموضوع أمام طاولته، ففعل عمار ذلك، وانتظر الإجابة بفارغ الصبر. قال له المحقق بترو شديد: مساء يوم الأحد حدث حريق في شقتك. لم يتمالك عمار نفسه، ولم يستطع الانتظار حتى يكمل المحقق كلامه، فقاطعه بقوله: إيمان .. زوجتي، هل حدث لها مكروه؟ أرجوك أخبرني، هل هي بخير؟

انتصب المحقق واقفاً، واقترب منه، ووضع يده على كتفه، وقال له: يؤسفني أن أخبرك بهذا، لكن زوجتك .. قضت نحبها في هذا الحريق. سقطت كلمات المحقق على أذني عمار كما لو أنها صاعقة مدوية، وترددت تلك الكلمات في أصدائه تبعاً، وزوجتك قضت نحبها في هذا الحريق .. في لحظة واحدة شعر أنه غير قادر على الوقوف أو الكلام أو التفكير. جميع قواه خارت، وجميع مداركه شردت، فانهار كلياً، ولم يعد يدري أي شيء عن حالته.

لم يسمح لعمار فيما بعد برؤية إيمان؛ لأنها تحولت إلى جثة متفحمة هامدة، ولأن ما بقي من جثمانها كان يخضع للفحص في المعمل الجنائي، الذي أظهرت نتائجها فيما بعد أن الوفاة لم تحدث بسبب الحريق، بل بسبب طعنات بأداة حادة. والأعجب من هذا أنه أتهم بقتل زوجته، فأقر هذه التهمة على نفسه، ولم ينكرها أبداً، إلا أن التقرير الصادر من قطعه العسكرية أثبت تواجده في كتيبته وقت وقوع الجريمة. وبعدها بأسابيع قليلة كشف مجرى التحقيق عن تورط شقيق إيمان الأصغر في جريمة قتلها. وبعد التحقيق معه اعترف بكل شيء، قال: إنه بحث عنها طويلاً، حتى وصل إلى عنوان شقتها، في ذلك المساء المكفهر وجدها وحيدة، فطعنها بالسكين عدة مرات، ثم أضرم النار في الشقة. وعندما سئل عن مبرراته لهذه الجريمة، قال: إنه يريد أن يغسل العار الذي ألحقته أخته بعائلته وطائفته. وبعد استكمال عمليات التحقيق، نشرت إحدى الصحف الرسمية في البلد مقالاً عن الجريمة، تحت عنوان: إيمان قتلها يد الهمجية. لكن الغريب أن عمار حتى هذه اللحظة بقي يؤكد للجميع أنه هو من قتلها.

صعدت روح إيمان إلى السماء، تشتكي إلى الله ظلم البشر، وعاد عمار من جديد يجلس وحيداً عند سفح ذلك الجبل؛ ليتساءل بمرارة شديدة: ما الذي فعلته تلك الصخرة السوداء حتى تجرفها السيول الحاقدة إلى غياهب الوادي؟! وما الذي فعلته إيمان حتى تحرقها الأيدي الآثمة قرباناً لآلهة الدوائر المزيفة؟ كيف له الآن أن يحيا بعد أن أطفأوا نور عينيها، وأخرسوا صوت ضحكاتهما؟! ومن سيصغي بعد الآن إلى أنين أوجاع قلبه الكسير؟!

كلب الحراسة

في ذلك اليوم استيقظت قبل بزوغ الفجر، لبست أفضل ثيابي: قميص "المخل" المورد الذي أهده لي أخي الأكبر بعد أن قصر عليه، وبنطلون "الجنز" ذي الماركة الفاخرة، اشتريته من "البالة" الأجنبية، لكنه كان في حالة جيدة، ربما لم يكن صاحبه الأول يلبسه كثيراً، لمعت حذائي الأسود الذي ضاق قليلاً على قدمي من كثرة إصلاحه عند جاري الإسكافي محمود. تأكدت أن هندامي على أحسن ما يكون، ثم توجهت إلى موقف الحافلات في قريتي - كفر الشيخ يونس - وسافرت إلى المدينة، غابتي كانت (فرع اتحاد الكتاب).

عندما وصلت إلى مركز المدينة بدأت بالسؤال عن عنوان "الاتحاد"، كنت أرى علامات الاندهاش على الإخوة المارين عندما أبادرهم بالسؤال، وكأنني أسألم عن شيء غير محبب، أو عن أمر غير مألوف! تنقلت من طريق إلى أخرى ولا أحد يجيبني إلى مبتغاي، حذائي الضيق اشتد غضبه من السير المتواصل في طرقات المدينة ذات التعبيد السيء، فأراد أن يذيقني بعض ما يشعر به، فأرسل الأنياب الزائدة من نهايات المسامير التي غرزها جاري الإسكافي محمود؛ لتخز باطن قدمي وأطراف أصابعي، فكدت أن أصيح في بعض الأحيان من وخزاتها، حتى أنني هممت بأمر سوء، بأن أعود قافلاً إلى كفر الشيخ يونس، وأنسى أمر نشر مجموعتي القصصية، وبينما أنا على هذه الحال من القنوط من الوصول إلى عنوان الاتحاد أطل من رأس الشارع الذي أقف فيه شاب وسيم، عليه سمة المثقفين، كان ممشوق القامة، أبيض البشرة، شعره "الأسود الخرنوبي" مصفف بعناية، يرتدي "بدلة رسمية" كحلية اللون، ورابطة عنق حمراء، يحمل في يده اليمنى حقيبة من النوع الغالي - حقيبة "دبلوماسية" - وفي يده الأخرى كان يمسك بجريدة الحزب الوطني، أعرفها جيداً؛ لا يوجد عندنا غيرها حتى لو تبدلت أسماءها، فهي هي. طواها عدة مرات، وأمسكها بإحكام، كأنه خشي أن تفر من قبضته. توسمت فيه خيراً، فبادرته بالتحية، وأخبرته أن الشعر قد نبت على لساني من كثرة السؤال عن اتحاد الكتاب، لكن للأسف لم يستطع أحد أن يرشدني إليه، فتبسم الشاب الوسيم بهدوء شديد، ثم أخرج قلماً من جيب سترته، وأمسك يدي اليسرى، وكتب عليها عنوان الاتحاد، وقال لي: امض برعاية الله إلى هذا العنوان، وسوف تصل إلى مبتغاك الصحيح، وغمز لي بعينه اليسرى، هازئاً رأسه بهدوء.

فرحت كثيراً، وشكرته أكثر، فلم يكن الشاب مثقفاً فحسب، بل كان شديد اللطف، أسرعرت إلى العنوان المكتوب على يدي اليسرى، وقد أبقيت يدي مفتوحة؛ حتى لا يصيبها العرق، فينمحي جزء من العنوان، وأمسكت بيدي الأخرى المصنف الذي يحتوي قصصي. ومن شدة فرحي رحت أعدو كالحصان، وقد اختفت جميع آلام قدمي، بل أصبح وخز مسامير محمود الإسكافي لا يعدو أن يكون دغدغات محببة.

سألت الكثير من سائقي عربات الأجرة، وسرت على قدمي لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة، لكن لا يهم، فقد وصلت أخيراً إلى العنوان المكتوب على يدي. نعم، هذا مقر الاتحاد، فقد رأيت من أول الشارع الكلمة الأولى من الياطة المكتوبة على بوابة البناء "اتحاد...". ودون أن أهتم بقراءة بما بقي من كلمات توجهت إلى المدخل

الرئيسي للبناء، وأردت الدخول، لكنني تنبهت على صوت أجش يناديني من خلف غرفة البواب: أنت ... أنت، يا أخ، إلى أين تدخل؟

توقفت في مكاني، وانتظرت أن يخرج إلي، لكنه اكتفى بأن أطل برأسه من النافذة الصغيرة المشرفة على المدخل ... رأيت رجلاً له غلظة في تقاسيم الوجه، شديد السمرة، كث الشاربين، خط الشيب في عارضيه. تفرست في عمره، فقدرته في العقد الخامس.

بادرته بالتحية، ثم قلت له: إنني أرغب في أن أقدم لإدارة الاتحاد بطلب لنشر مجموعة قصصية، لكن الرجل نظر إليّ شزراً، ثم رمقني بنظرة مستغربة من أسفل قدمي إلى أعلى رأسي. شعرت بأن الرجل يتفحص هيبتي، كما يفعل الضابط مع جنديه في التفقد الصباحي. كانت نظرتي توحى إليّ بأنني لم أتل الكثير من الاحترام عنده، وبدلاً من أن يرد على تحيتي، فاجأني بسؤال لا يطرحه البواب عادة، فقال لي: وهل أنت مثقف؟

أردت أن أظهر لهذا البواب قدراً من التواضع يتخفى خلف شيء من الغرور، فقلت له: لا أستطيع أن أزعج أنني مثقف، لكن أنا مدرس مادة اللغة العربية في ثانوية الشهيد عبد الإله النصار في كفر الشيخ يونس، أحب الأدب والقراءة كثيراً، قرأت مئات الكتب والأعمال الأدبية، وأطمح أن أنشر مجموعتي القصصية هذه، فقد سهرت عليها الليالي الطوال بين تنضيد على الآلة الكاتبة، وتصحيح وتدقيق ومراجعة، حتى وصلت إلى شكل رضيت عنه، وأرجو أن أحصل على موافقة اتحاد الكتاب لنشرها. لكن البواب أعاد عليّ السؤال من جديد: سألتك إن كنت مثقف، لكنك لم تجبني صراحة عن رأيك، حسناً سألك بصيغة أخرى: من هو برأيك المثقف الحقيقي؟

قلت في نفسي: يبدو أن هذا البواب الثرثار يشعر بالملل من حراسة المدخل، ويريد أن يتسلى. والله سوف أجيبه بصورة فلسفية، تجعله يدور على نفسه كما لو أنه ضُرب على رأسه، فأجبت بطريقة خبيثة، قائلاً: إن المثقف الحقيقي هو الذي يعرف شيئاً عن كل شيء، وكل شيء عن شيء! لكن البواب عاجلي بجواب ملاءم الحزم، قائلاً: خطأ .. إجابة خاطئة!

فشعرت بالغضب يحتقن في صدري، وانتفخت أوداجي، ولم أتمالك نفسي، فصرخت به، قائلاً: إذاً تفضل يا حضرة الفيلسوف، وقل لي من هو المثقف الحقيقي؟!

نهض الرجل من خلف النافذة، وخرج من غرفة الحراسة، فإذا بي أمام رجل له بسطة في القامة، اقترب مني، وأمسك بتلابيبي، وجذبني إليه بقوة. لقد آلمني بفعلته تلك، لكن لم يكن همي الألم، بقدر ما خشيت أن يتمزق قميص الخملة الموردة، وقال لي: أيها الجاهل، إن المثقف الحقيقي في بلادك هو من يستطيع أن يؤمن رغيف الخبز لعياله!

تلعثمت في كلامي وأنا أقول له: حسناً .. على رسلك يا رجل .. لا داعي لأن تزعج نفسك، لن نختلف حول هذا الموضوع، وبكل الأحوال أنت محق! ما لبث أن هدأ الرجل، وأرسلني، وقال: ما اسمك؟

أجبتة على الفور: عبد القادر. فقال: يا عبد القادر، ألم تلاحظ أنك شخص مغفل. لم أرد أن أزعجه مرة أخرى، فسألته بلطف: لماذا يا سيدي؟ فقال: لأنك تقف أمام "اتحاد أعلاف الدواجن"، وليس أمام "اتحاد الكتاب"!! وبصورة لا إرادية التفت إلى اللافتة أحملق فيها، فإذا هي كما قال البواب.

أصابني الخيبة، فنكست رأسي إلى الأرض، ووضعت يدي اليسرى على المصنف الذي أحمله بيدي اليمنى، غير آبه بالعنوان الذي أعطانيه ذلك المثقف الوسيم، وشعرت فجأة بأنياب محمود الاسكافي تنهش قدمي بشراسة لم أشعر بها من قبل. تفرس البواب ما أصابني، فوضع يده على كتفي، ثم ربت عليه، وقال: لا عليك، سوف أعطيك العنوان الصحيح لاتحاد الكتاب، لكن يبدو عليك التعب والإرهاق، تعال أسقيك كوباً من شاي العروسة، ثم تذهب لمبتغاك. دخلنا إلى الغرفة الصغيرة، رحب بي الرجل، وبدأ لي أنه أصبح شديد اللطف، على غير الوجه الذي كان قد استقبلني به، فأردت أن أبادله أطراف الحديث، فسألته عن مدة عمله كبواب لمقر اتحاد أعلاف الدواجن، ففاجأني غريب الأطوار هذا بقوله: أنا لا أعمل بواباً؟ .. لا تعمل بواباً!! .. إذاً ماذا تعمل من فضلك؟ فأجاب: أعمل كلب حراسة!

عندما سمعت جوابه لم أنبس ببنت شفة، وقلت في نفسي: إن أجوبة هذا الرجل كمن يقذف الحجارة بالوجه، يبدو لي أن دماغه فيها شيء من الخلل، سأشرب الشاي، وأخذ منه العنوان، وأنصرف، ولا ينقصني المزيد من المشاكل في هذا اليوم المتعب. ناولني الرجل كوب الشاي، فأردت وضعه على الطاولة الصغيرة الموجودة إلى جانبي الأيسر، فلفت انتباهي صورة صغيرة موضوعة في إطار خشبي قديم. كانت الصورة لرجل بالزي العسكري، تبدو عليه الوسامة الشديدة، وقد علق على صدره الكثير من الأوسمة، وعلى كتفيه كان يحمل شعار النسر، وإلى جانبه نجمة خماسية. نظرت إلى الصورة جيداً، ثم إلى وجه البواب، كررت النظر من جديد عدة مرات. لقد كان بينهما شبه كبير جداً، سوى أن البواب تبدو عليه علامات الكبر. لاحظ البواب نظراتي الحائرة بينه وبين الصورة، فأخذته نوبة من الضحك، ثم استند بظهره إلى الحائط الذي خلفه، وقال: نعم، هذا أنا!

مرة أخرى يفاجئني هذا الرجل غريب الأطوار، لكن كيف حدث ذلك؟ هل أنت يا سيدي ضابط متقاعد؟ لا، بل أنا ضابط مطرود بطريقة مهذبة من العمل العسكري!

نعم، لكن ... لماذا وكيف؟!

حسناً يا مثقف، إن عمك جابر كان ضابطاً في سلاح الطيران، برتبة مقدم، والأوسمة التي تراها في الصورة معلقة على صدره تشهد على البطولات التي قام بها أثناء عمله العسكري. في حرب أكتوبر كان على ضباط سلاح الطيران مهمات جسيمة في التصدي للقاذفات الإسرائيلية، وفي إحدى المهام التي أوكلت إلي اخترقت بها الخطوط الإسرائيلية، ونفذت المهمة على أحسن ما يكون، لكن طائرتي أصيبت خلال عودتي بطلقات من رشاشات المضادات الأرضية. لم يكن بالإمكان إنقاذ الطائرة، فقفزت بمظلة كرسى النجاة، ولم يكن لدي خيار آخر، فوقع في الأسر؛ إذ إنني كنت - كما قلت لك - في منطقة العمليات الإسرائيلية، وبعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات خرجت من الأسر في عملية لتبادل الأسرى. كان عمك جابر يعتقد أنه سوف

يستقبل بالورود والأزاهير، وسوف يمنح وسام شرف على بطولته، وعلى مقاومته في السجن ... لكن وزارة الدفاع قامت باللائم وزيادة، فقالوا لي: نريد أن نكافئك على بطولتك بأن نجعلك تستريح من العمل العسكري، ونعطيك راتب تقاعد، وحتى لا تشعر بالملل سوف نقدم لك عملاً مريحاً جداً، وهذا العمل كما ترى هو كلب حراسة على باب اتحاد أعلاف الدواجن، وفعلاً مثل ما قالوا العمل هنا مريح جداً؛ لأن زبائن هذا الاتحاد قليلو الكلام، هذا إن استطاعوا أن يتكلموا، ولا ينغص عليّ هدوئي وراحتي هنا سوى بعض المتطفلين من أمثالك!

شعرت بضالة حتمي أمام هذا الرجل، وشعرت بالخلج الشديد للطريقة التافهة التي يملؤها الغرور التي كنت قد أجبت به عن أسئلته، فأردت أن أواسيه، فقلت له: لكن لماذا تفعل ذلك وزارة الدفاع؟ فأجابني: طالما أنك في دولة عربية عليك ألا تستغرب أن تنقلب المفاهيم، وأن يتبادل الناس الأدوار، فيصبح البطل خائناً، والجبان شجاعاً، والتافه مثقفاً، والمثقف تافهاً، ... وهكذا دواليك. فوزارة الدفاع لديها تخوف بأن يكون الإسرائيليون قد جندوا الأسرى لديهم كجواسيس. حسناً .. من حقهم أن يتأكدوا من هذه الشكوك، لكن كيف يشكون في ولاء من غامر بحياته مراراً خلال الحرب في سبيل أرضه ووطنه؟!

انقبضت أسارير جابر، وتوقف عن الكلام ليستسلم لصمت طويل ... نظرت إليه، فأحسست بالمرارة والألم، الذي يعتصر أعماق هذا الرجل. أردت أن أواسيه لكنني لم أجد أي كلمة تفي بالغرض. وضعت كوب الشاي من يدي، ووقفت باحترام أمام العم جابر، وأردت توديعه للانصراف، لكنه تبسم في وجهي، وقال لي: يا عبد القادر، والله لقد أحببتك، وتفرست فيك الطيبة والرجولة ... سأكتب لك عنوان اتحاد الكتاب، مع أمنيائي لك بالتوفيق وأن تصبح كاتباً مشهوراً، وعندها لا تنس أن تكتب عن هموم من هم أمثالي وقصصهم، وإن احتجت أية مساعدة في المدينة فلا تتردد في القدوم إلي ستجدي معظم الوقت في غرفة حراسة الكلب هذه! ودعت صديقي الجديد العم جابر، وتوجهت من فوري إلى العنوان الجديد، وبعد أقل من نصف ساعة كنت أقف أمام مبنى الاتحاد، قرأت اللافتة جيداً، وتأكدت أنه اتحاد الكتاب، وليس أي شيء آخر.

توجهت إلى غرفة الحارس، وكنت حذراً جداً، فسألته بألفاظ العبارات إن كان يسمح لي بالدخول إلى البناء، لم يرد على سؤالي بأية كلمة، لكنه أوماً إلي بيده أن أدخل. كانت الطريقة التي أشار إلي بها توحى بشيء من القرف، لم يثر ذلك غضبي أبداً؛ فقد أصبحت أكن للبوابين الكثير من الاحترام. وقلت في نفسي إذا كان بواب اتحاد أعلاف الدواجن مقدماً في سلاح الطيران، وأحد أبطال حرب أكتوبر ... فمن يدري من سيكون بواب اتحاد الكتاب؟ فقد يكون وزيراً سابقاً، أو شيئاً من هذا القبيل ... لا عليك.

دخلت البناء، وتوجهت إلى مكتب مدير المطبوعات كما أرشدني أحد المراجعين، لم أستطع مقابلة المدير، لكن السكرتيرة استقبلتني بشكل جيد، وكانت لطيفة، أخبرتها عن رغبتني بنشر مجموعة قصصية عن طريق اتحاد الكتاب، ولم أخف عنها رغبتني الشديدة في أن أكون عضواً باتحاد الكتاب، فهذا حلم طالما راودني منذ عهد الشباب المبكر.

قالت لي: نحن نرحب بك يا أستاذ عبد القادر، ولا شيء يمنع تحقيق رغبتك، فقط عليك أن تستوفي هذه الأوراق، وترفقها مع مخطوطة مجموعتك القصصية، وسوف يقدم طلبك للجان المختصة؛ لتحصل بعدها على الموافقة. ثم كتبت لي الأوراق المطلوبة لتضمينها الطلب، فأخذتها مسرعاً وأنا أشعر بالفرحة العامرة ... أخيراً بعد كل هذا التعب سأقرب من تحقيق حلمي. بدأت أجمع التوقيعات وأملأ الاستمارات في المكاتب المختصة ابتداءً من الطابق الأرضي إلى الطابق السابع. بعد حوالي ساعتين من الصعود والنزول على السلالم بين أدوار مقر الاتحاد استطعت أن استوفي جميع الأوراق المطلوبة باستثناء شرط واحد كانت الآنسة السكرتيرة قد كتبتة ... شرط رقم عشرة طابع فئة (واو). سألت في الديوان ... في الأرشيف ... في المكاتب الأخرى ... الجميع قالوا لي: ليس لدينا هذا الطابع، شعرت بالاضطراب؛ وقت العمل الرسمي للموظفين يوشك على الانتهاء ولا أريد أن أسافر مرة أخرى من كفر الشيخ يونس إلى المدينة فقط من أجل شراء طابع تافه، وتغيب عن عمل التدريس في الثانوية سوف يثير سخط الناظر علي.

عدت إلى السكرتيرة اللطيفة، ورجوتها أن ترشدني أين يمكن أن أحصل على طابع فئة (واو)، فقالت لي: بكل بساطة تجده عند الحارس الذي يجلس في غرفة الاستقبال عند مدخل الاتحاد، قلت في نفسي: سبحان الله، لقد تفرست في هذا البواب الخير، وقد علمت أن له شأنًا، وبدون تردد أسرعرت أعدو إلى الحارس، قلت له: يا سيدي، أريد طابعاً فئة (واو)، وقد أخبروني أنه موجود عند حضرتك، فهز الحارس رأسه بعد أن وضع كأس المنة جانباً، وقال: حبيبي، جئت على العنوان الصحيح، الطابع الذي تحتاجه لاستكمال طلبك موجود عندي، لكنني لا أستطيع أن أعطيك الطابع من فئة (واو) دون أن تحضر لي طابعاً من فئة (ري)؛ قلت في نفسي: ما هذا اليوم الغريب؟! وماذا يكون (ري) هذا؟! قاطعت حديث نفسي، وطلبت من الباشا البواب أن يرشدني، من أين يمكنني أن أحضر له طابعاً فئة (ري)؟ فأجابني: يا حبيبي، هذا الطابع موجود في محفظتك! لم أفهم ما يقول البواب، فأعدت عليه السؤال مستوضحاً إجابته، لكن الباشا البواب انزعج مني بصورة شديدة، وتلفظ بكلمة لم أفهمها حينها، قال: يبدو أنك مصيف!! ثم أغلق نافذة المراجعة في وجهي.

في الحقيقة استغربت كلام السيد البواب؛ فالطقس بكل الأحوال كان صيفاً! طرقت عليه النافذة عدة مرات، فلم يفتحها، ثم أعدت الطرق، فأطل برأسه منها، وقال: يا حبيبي، بدون طابع فئة (ري) لا يمكن أن تحصل على طابع فئة (واو)، هكذا التعليمات لدي، وهذه التعليمات من السيد الباشا رئيس الاتحاد شخصياً. أجبتة: حسناً، تعليمات الباشا رئيس الاتحاد على رأسي من فوق، لكن فقط دلني، من أين أحضر لك الطابع (ري)؟ فحرك رأسه من جديد باندعاش من سؤالي، وكأني أسأله عن اسم أحد العفاريات، وبحركة تشير إلى أنه يريد أن يتخلص مني قال: عد إلى الآنسة التي أرسلتك إليّ، وقل لها: من أين أحضر هذا الطابع؟ وهي سوف تفهمك الإجابة.

شكرته كثيراً، وعدت مسرعاً إلى الآنسة اللطيفة ... كنت أرى الموظفين قد شرعوا في مغادرة مبنى الاتحاد، صعدت السلالم بسبب تعطل المصعد، وبدأت أعدو إلى الطابق السادس، كان العرق يتصبب من جبهتي،

ويبلل الأوراق والمخطوط في يدي ... وصلت إلى مكتب السكرتيرة، فوجدتها تريد أن تغادر الحجرة، فاستمحتها عذراً أن تسمعي لدقيقة واحدة، فوافقت، فشرحت لها على عجل أن الباشا البواب أخبرني أنه يجب عليّ إحضار طابع فئة (ري) حتى أحصل على طابع فئة (واو)، وطلبت منها بلطف شديد أن تدلني على كيفية إيجاد هذا الطابع، تبسمت الأنسة اللطيفة، وقالت لي: ماذا كان اسمك؟ فأجبته على عجل: عبد القادر ... الأستاذ عبد القادر يا سيدي! قالت لي: يبدو أنك يا أستاذ عبد القادر تنتمي للعصر الكلاسيكي، هل يوجد أحد في هذه البلاد لا يعرف ماذا يعني طابع فئة (ري)؟! عد إلى قريتك يا أستاذ عبد القادر، وعندما تعرف من أين تحضر الطابع المطلوب يمكنك أن تتقدم بطلبك لتصبح كاتباً، فبدون هذا الطابع لا تحلم بالحصول على الموافقة. ثم أخرجتني من المكتب، وأغلقتة، وغادرت.

بقيت وحيداً في بهو الممر، أدور على نفسي حائراً، لم أفهم شيئاً مما قالته هذه الأنسة، فهي لم تخبرني من أين يمكن أن أحصل على الطابع! وبينما أنا على هذه الحال، نبهني صوت الفراش الذي طلب مني مغادرة البناء؛ لأن وقت المراجعة قد انتهى. خرجت من مبنى اتحاد الكتاب وأنا في أشد الحيرة، فتذكرت صديقي كلب الحراسة العم جابر، وقلت في نفسي: لا بد أن البوابين لديهم لغة مشتركة، ولديهم نفس التعليمات، لعلني أستطيع أن أجد هذا الطابع عنده، وإن ساعدني في الحصول على الطابع أعود غداً؛ لتقديم طلبي من جديد، والله يكون في عوفي على اختلاق عذر لناظر الثانوية.

خشيت أن يغادر العم جابر غرفة كلب الحراسة قبل أن أصل إليه، فغامرت بنصف ما أحمله من مال، وأخذت سيارة أجرة، وبعد بضع دقائق كنت أمام مبنى اتحاد أعلاف الدواجن، وحيث كنت أدفع الأجرة للسائق لمحت العم جابر في الغرفة، فاستبشرت خيراً. سرت إليه مسرعاً، وشرحت له ما حدث معي، لكنه بدلاً من مساعدتي أخذ يقهقه حتى كاد يسقط من شدة الضحك، بل رأيت دموعه تترقق في عينيه، فاستغربت فعله، وقلت في نفسي: هذا الرجل حقاً غريب الأطوار.

سألته: هل يمكن أن أفهم لماذا كل هذا الضحك؟! قال لي: يا ولدي يا عبد القادر، قد تكون شخصاً مثقفاً، وقرأت الكثير من الكتب، ودرست الأدب لسنوات، لكن يبدو لي أنه فاتك أن تقرأ أهم كتاب، وهو كتاب الواقع المرير الذي يعيشه مجتمعك. فالسكرتيرة اللطيفة أرادت أن تقول لك بأن طلبك لن ينال موافقة الباشا المدير دون أن يكون لديك واسطة، وهذا هو الطابع فئة (واو)! ومفتاح الباشا هو البواب الذي يجب أن تدفع له رشوة؛ ليوصلها إلى الباشا المدير بطريقته، وهذا هو طابع فئة (ري)! وبدون هذه الطوابع لن تصبح في حياتك كاتباً في بلادك.

شكرت العم جابر على توضيحه لي بعض أنواع الطوابع المطلوبة لتقديم الطلبات الرسمية في الدوائر الحكومية، ثم ودعته؛ لأعود قافلاً إلى كفر الشيخ يونس، حيث أخذت بنصيحته، فانكببت على قراءة كتاب الواقع جيداً، ثم كتبت بعدها الكثير من القصص التي تشرح فصول هذا الكتاب، لكن لم أعد أبداً لزيارة مقر اتحاد الكتاب منذ ذلك اليوم ... وقد مضى على هذه الحادثة تسعة عشر عاماً، ورغم أنني كتبت

الكثير من القصص خلال هذه السنوات فإنني لم أصبح بعد كاتباً، فالمشكلة لدي أنني حتى هذه اللحظة لا أرغب في معرفة ما يعنيه طابع فئة (واو) أو فئة (ري).

أوراق مبعثرة

نُقل إلى المستشفى وهو يغَطّ في غيبوبة عميقة، وقلبه يخفق ببطء شديد وهو لا يدري ما يجري حوله، والكل يشكّ بمقدرته على الاستمرار في الحياة. مدّد جسده على سرير العمليات، وأحاط به الأطباء والمرضون، يضع كلُّ منهم على وجهه غطاءً يتخفى به، ولا يُظهر إلا عينيه، يمسك بعضهم بالآلات الحادة والدقيقة، ويراقب بعضهم الأجهزة بتفرّس، ويداعب بعضهم الأحشاء بلطف، وأمّا الجباه فيتصبّب منها العرق ... يا لها من لحظات حسّاسة وخطيرة، وكذلك حاسمة، فالوقت يسبح عكس تيّار الحياة، إلا أنّ الأمل لا يزال موجوداً، وإن كان يطلُّ من نقاط دقيقة، تلمع كالبارقة في دَمَس الظلام. هذه اللحظات بخطورتها تراقب في غرف عديدة من جناح العمليات؛ فالمستشفى يغصّ بضحايا الحادث، بعضهم يسافر وينتهي أمره، وبعضهم الآخر ما زال يقاوم الموت. أنهى الطبيب الجراح عمله، وحدّق بجهاز خفّقان القلب، ومن ثمّ استجلى كل القائمين على العملية، فتبادلوا النظرات فيما بينهم وأداروا وجوههم بلطف مدققين النظر به، وكأنّهم يتفحصونه للمرة الأخيرة. أنزل الطبيب المختصّ بالتخدير اللثام عن وجهه، وأطلق زفرة الصعداء، ثمّ قال: حمداً لله، بأقلّ النتائج سيضمن الحياة. خرج الكادر الطبيّ من الغرفة، بينما بقي المرّضون والمرّضات يحكمون رباط الجبس، وينظفون الغرفة من آثار العملية، التي استهلكت من الوقت ثلاث ساعات، وأرهقت من قام بها.

كانت تهرول في ممرّ المشفى والدّموع تغرق خديّها، دخلت على عجل فرأته ممدداً على السرير والضّمادات تغطّي معظم جسده. بدا لها شارد الذهن متجهّم الوجه، جلست إلى جانب سريرته تنظر إليه بعينين يملؤهما الدمع والأسى، في حين كان لا ينبس ببنت شفة كما لو أن فمه قد أوصد بأقفال ثقيلة، وعيونه تحلق في خطّ فراغيّ مستقيم يصوّبه في جسد الحجرة. أكدت الفحوصات الطبية - فيما بعد - إصابته بالشلل، فاستجاب لرغبة أهلها في فسخ قرانهما ! وواسها بقوله: إنّ الحبّ العظيم أمام إرادة القدر يتحوّل إلى كلمة ذليلة عاجزة عن الصمود، وشجرة يابسة مغروسة في تربة الوهم، لا تثمر غير الضياع، لذلك علينا أن نفرّق، مثل كلّ القصص الحزينة التي دارت في فناء العاشقين، نفرّق مثل: ليلي ومجنونها، مثل: بثينة وجميلها، مثل: روميو وجوليت، مثل: ممّو وزين، فلسنا أوفر حظّاً منهم، ولسنا أقلّ بأساً منهم. إن الأحداث تصنعنا، ولا نصنعها، إنها تسير بنا كالأموّاج التي تحمل لوحاً من الخشب، تقذفه مرة، وتحضنه مرّة، ثمّ ترميه في التهاية إلى شاطئ مجهول.

عندما تسرّب الظلام إلى حجرته في المساء، دخلت عليه والدته وتقدمت نحوه بخطى متباطئة، تحمل بيدها اليمنى ظرفاً أحمر اللون، فتح الطّرف، فوجد فيه خاتماً وورقة طويت بعناية، في الورقة كتبت تقول: عندما تصلك هذه الرّسالة، وتمسك الخاتم الذي جمع قلبينا يوماً، سأكون قد سافرت مع زوجي. أعرف أنّك ستبدأ رحلتك مع الألم والعذاب منذ هذه اللحظة. أما أنا فأعلم أنّي أصبحت في عداد الأموات؛ لأنّ الجسد الذي انفصلت عنه الرّوح ليس إلا هيكل ميت، وإذا كانت الأقدار جعلتني لغيرك ولم أتمكّن من البقاء إلى

جنبك، فإن روجي ستبقى معك ولك. هذه الكلمات التي أكتبها لك على عجل لا تعبر عن مقدار الحب الذي أكنّه لك، لكن الدموع التي تفيض من عيني جعلتني عاجزة عن إِبصار السّطور، فأرجو أن تلتمس لي العذر وتسامحني كما كنت تفعل دائماً.

بعد ثلاثة أعوام على سفرها مع زوجها إلى بلد أوري، أدخلت المشفى بسبب تعسّر ولادتها، وموت جنينها، فلزمت الفراش لأيّام عديدة، لكن حالتها الصحية السيئة، لم تشفع لها عند زوجها، الذي ما انفك يعاملها بقسوة واحتقار منذ بداية زواجهما، ولم يكتف بعدم زيارتها في المشفى بل اعتبر انها السّبب في موت الجنين. وعندما حان موعد خروجها من المشفى وتوجهت لشقتها اكتشفت خيانتة الزوجية لها، فلم تعد قادرة على أن تتحمل العيش معه. انفصلت عنه، وعادت إلى البلاد تحمل مرارة تجربة زواجها ممن لا تحب. بعد أيام من عودتها، عرفت أن حبيبها المقعد الذي تخلت عنه قد تردّت أحواله النفسية حتى فقد عقله من شدة كمد وحزنه على فراقها. وعندما زارت والدته أعطتها أوراقاً كان قد كتب بها قصتهما معاً. فعزمت على إتمام كتابة الأحداث المتبقية في هذه القصة.

قرأت ما كتبه بتمعّن وشغف رافقه الكثير من التهنّيدات والدموع والتّحسّر وأخيراً الانعزال في حجرتها، حتّى احتجّت عليها أسرتها، قلقة على صحتّها، التي بدأت تتدهور منذ أن أحضرت هذه الأوراق، بل منذ أن عادت من ذلك اليوم الذي زارته به في مشفى الأمراض العقليّة، إذ إنّها تمتنع عن الطّعام في أحيان كثيرة بسبب فقدانها للشهية، فنحل جسدها، وشحب لونها، واصفرت طلعتها، حتّى غدت أشبه بشبح، بعد أن كانت عروساً فاتنة.

كتبت في الصّفحة الأخيرة تقول: بهذه الصّفحة أكون قد أنهيت القصّة التي تروي أحداثاً مريرة مررنا بها، كنت أعتقد أنّي أعرف مقدار الحبّ الذي كان يكنه لي، لكن بعد أن قرأت ما كتبه عني في الأوراق أدركت أنه شاب ينذر مثيله في هذا العالم، فقد وصف حبّه لي بأنّه كان يتعالى عن الشهوات الرّخيصة التي تنحطّ بالإنسان إلى مدارك البهيمة، ويرتقي بعواطفه ومشاعره إلى الحدّ الذي يمكنه من التّحليق بروحه لتلتقي بروحي. فمن شدّة تعلّقه بها كتب يقول :

لا زلت أذكر تلك الليالي الطّوال، التي قضيتها ساهراً مسهّداً العينين قريح الفؤاد، أئن من وجع الشّوق إليها، لا تكاد تخلو ليلة دون أن أذرف دمعاً حارّاً من شدّة ولعي وتعلّقي بها، لقد كانت ملاكي الطّاهر، وروحي الشّفاف، كنت إذا ما غصّني الشّوق، وقصّ مضجعي، أقوم إلى ربي فأصليّ إليه، ادعوه بعيون يملؤها الدّمع المحترق أن يجمعني بها، فلکم أتجرّع الصّبر علقماً لفراقها، ولكم يعلو صراخ آلامي من أدقّ النقاط في أعماقي، لكن لا أحد يسمعي، لا أحد يواسيني، كم أتمنّى لو أتمكّن من رؤيتها للحظة واحدة لا غير، لقد فقدتها وكانت هي روجي، فهل يستطيع المرء أن يحيا بلا روح؟ إنّ كلّ من يحيط بي من أهلي وأصدقائي يعتقدون أنّ حزني العميق إنّما هو بسبب فقدان القدرة على المشي وموت نصف جسدي، لكنهم لا يعلمون أنّ بعدها عندي يفوق كل فاجعة يمكن أن تلمّ بي، ربّاه إنّ جسدي ليحترق بنار حبّها، وإنّ روجي لتشعّ نضارةً ونوراً من شدّة تعلّقي بها، فحرّرتني يا ربّ من قيد هذا الجسد؛ لتنطلق روجي محلّقة حول روحها.

ولذا كتبت هي الأخرى تقول:

لكن تأكد أيها الغالي أنني لم أكن أقل حباً لك منك، فلکم اكتويت بنيران عذابات الفراق، عندما ساقنتي الأقدار لغيرك، ولكم يؤلمني ما آلت إليه حالنا، فأنت تتوه في دوامة يستحيل عليك الخروج منها، وأنا بتّ بعدك كهفاً مهجوراً، أعدت أيامي الأخيرة بشوق كبير للعتق من ربة هذا الجسد، والتحرر من كل هذه الآلام اللامنتهية. إني أتساءل: ماذا فعلنا حتى تعاقبنا الأقدار بهذه القسوة؟! إن محيّلتي لا تستطيع أن تستوعب حكايتنا؛ فنهايتها أغرب مصير عرفته لعاشقين حكاية. منذ اللحظة الأولى الظلمة التي باعدت بين قلوبنا تحولت إلى جسد يتيم فقد روحه، تحولت إلى قدر ضائع، وحظ بائس، إلى رموز مكتوبة بلا حروف، وحروف مهروقة بلا حبر، وحبر بلا لون، ولون بلا معنى.

أيها القدر، يا من باعدت بين روحينا، ها أنا أدعوك لأن تكمل الرحلة التي بدأت، أدعوك لأن تنهي مسرحيتك، أدعوك لأن تمضي بنا إلى حيث لا ندري، إلى طريق اللارجعة، إلى ليل سرمدٍ بلا نجوم، وغروب فاحمٍ بلا شروق، إلى أوجاع الدرب الطويلة، وآمالٍ كالخرق الممزقة، ونهاية بلا بداية. وفجأة وبعد أن أنهت هذه الكلمات، زفرت شهقة ملتبهة، فسقط القلم من يدها، وأسرع رأسها هاوياً إلى الطاولة، دون أن تنبس ببنت شفة، وفُتحت النافذة مدفوعةً بقوة الريح، فتطايرت الأوراق مبعثرة في الأزقة المعتمة، المبللة بأمطار الشتاء، ثم خيم بعدها صمت مهيب في أرجاء الحجرة.

صاحب المقام الرفيع

ثقل عليه هم الأولاد، وأعياه اللهات خلف رغيف الخبز، وزاد عليه الطين بلة جزع زوجته، وكثرة تدمرها، حتى أصبحت صفة الشكائة صفة ملازمة لها. لم يدر أين يهرب في هذا المساء من همومه، وأشباح فاقتة. خرج من بيته وهو لا يعي إلى أين ستحملة قدماه. قطع عدة أحياء حتى وجد نفسه عند مفترق الطرق العريضة المفضية إلى أحياء أهل الدعة والنعيم، تنبه على أصوات أبواق موكب من سيارات (المرسيدس) الفخمة، ذات الطلاء الأسود، والعجلات المرتفعة، التي توقفت على الجانب الآخر المضاء من مفترق الطرق! قال في نفسه: لا بد أن هذا الموكب لأحد أصحاب المقامات الرفيعة في حكومة ولي الأمر، أو ربما يكون لأحد العسكريين المدججين بالأوسمة والنياشين، فأخذ ركناً من الجانب غير المضاء من حافة الشارع، يراقب ترجل صاحب الموكب، فلعله يكون شخصاً معروفاً، يظهر للناس في الجرائد أو التلفاز، فيسعد بقية ليلته برؤية هيبته.

وما هي إلا لحظات حتى هبط السائق والمرافق ليصطفا بجانب باب (المرسيدس - ماركة الصابونة)، فتح السائق باب السيارة؛ لينزل منها الرجل المهم، فكان أول ما ظهر منه قدميه، لاحظ صاحبنا لمعان حذاء ذلك الرجل تحت أنوار المصباح الآلي الحاني فوق ذلك الركن من الطريق، ثم ظهرت بقية أشيائه، مثل: يده، ورأسه، وظهره، وخلفيته، وغيرها ... كان رجلاً ربعة، يميل إلى القصر، معظم فروة رأسه قد سقط، حليق الشارب، بلحية مرسومة كحد السكين، يرتدي بدلة سوداء، وتحتها قميص بندت أزراره حتى الزر الأخير، رغم أن المساء كان حاراً جداً، ولم يكن يرتدي رابطة عنق، فكان له أمراً غريباً: كيف لمثل هذا الرجل المهم - الذي يرتدي مثل هذه الثياب الفاخرة، ويملك هذه السيارة الفخمة - ألا يرتدي رابطة عنق؟! نظر إليه جيداً، فلفت انتباهه اكتناز أردافه، وانتفاخ صحن خديه، وامتلاء منكبيه، حتى أن بطنه أستدار وبرز أمامه على هيئة حبة الإاجاص، بل كان بإمكانه أن يلاحظ حمرة خديه، وأن يتنبأ بنعومتها، وإن كان ذلك دون أن يلمسهما.

نظر إلى وجه ذلك المسؤول، فأحس بأن هذا الوجه ليس غريباً عنه، كرر التفرس في تقاسيم وجهه، فتبين له أنه يعرفه حقاً، سأل نفسه: هل هذا هو...؟ فجاء جواب نفسه لنفسه: هو بعينه! إنه هو! مرت لحظات وهو يحديق النظر فيه، فكان يشاهد أحد مرافقيه وهو يخرج (الرجيلة) من صندوق السيارة مع بقية الحقائق، ثم ليغور الجمع في إحدى مداخل الأبنية الفاخرة، فهجعت المراكب في ركنها، بعد أن غادرها من كان فيها، إلا أنه بقي في مكانه هناك، في الركن المظلم من حافة الطريق، التي تفصل بين الفقراء والأغنياء ... كان ساكناً بلا حركة، يستعيد صوراً من ذكريات تراكمت عليها أعوام طوال، جمعت يوماً مع هذا الرجل صاحب المقام الرفيع، الذي لم يكن سوى أحد رجال الدين البارزين في المدينة، تكتب عنه المجلات والجرائد، وتستضيفه القنوات والمحطات، وتباع له مسجلات على الأشرطة في المكاتب والأكشاك.

كانا في عهد الشباب المبكر يتجاوران في المسكن، في إحدى أحياء الفقراء، فدرسا المتوسطة، ثم الثانوية معاً. مازال يذكر كيف أن هذا "الشيخ" كان مضرب المثل في الغباء والكسل في مدرستهم، وكيف أنه لم يكن يتجاوز الصفوف إلا بالغش والاحتيال، لكنه رغم غبائه المدقع، ولا مبالته، فقد وهب صوتاً جميلاً عذباً، لذلك كان حلمه أن يصبح مغنياً مشهوراً. ورغم اجتجاده في المرحلة الثانوية العامة - بالغش والتزوير في الامتحانات - فإنه حصل بالكاد على علامة النجاح، فلم يتمكن من الالتحاق بمعهد الموسيقى آنذاك، ولم يستطع الحصول إلا على مقعد جامعي في كلية العلوم الشرعية، التي تقبل جميع المتقدمين إليها، ومن كرمها لا ترد سائلاً؛ فأمل الناس فيه خيراً، لعل حاله ينصلح وخلقته يستقيم؛ فقد أصبح طالباً في كلية الأخلاق! لكن يبدو أن المثل جرى عليه، بأن "ذنب الكلب أعوج ولو وُضع في القوالب سنين"، وهكذا مضى في الغش، ودفع الرشوة، حتى حصل على شهادة الإجازة، ولجمال صوته عُين إماماً في أحد المساجد براتب زهيد، فاستطاع بمجبرته الطويلة في فنون التزلف والخداع والحيل - بالإضافة إلى صوته الذي يأسر به أسماع المصلين عند تلاوته للآيات - أن يحظى بالتفاف رواد المسجد حوله، وما لبث أن انتدب ليصبح خطيباً في مسجد بأحد الأحياء الراقية، فازدادت شعبيته بين الأغنياء، كيف لا، وهو يسهل عليهم الحدود حتى لا يبقى لها حدود؟! فعلاً نجمه، وقرب من أهل السياسة، حتى أصبح مجاباً فلا يرد له طلب، ولأنه لا يقبل أن يحمله أحد فضلاً، كان يعاملهم بالمثل، فلا يرد لهم طلباً كذلك! فانتهالت عليه الأعطيات من كل حذب وصوب، وتزاحمت على عقد اللقاءات معه وسائل الإعلام، وهكذا حتى أصبح من أبرز شيوخ المدينة. أما صاحبنا المهموم، فرغم تخرجه في كلية الهندسة المدنية، إلا أنه لم يجر عليه مثل ما جرى على زميله السابق من النعيم والحظوة، فلا زال لباسه مرقعاً، وطعامه منقعاً، وهزلت قامته، واصفرت طلعتة، وضاعت بالعيال عليه معيشتة، حتى ملها، وتمنى أن يصبح عليه صباح وهو ليس من أهلها.

ما هي إلا لحظات حتى نبهته إحدى الحافلات المارة بأبواقها، فاستفاق من توهانه مع ذكرياته العتيقة، ونظر مجدداً إلى السيارات الفارهة، وإلى بيوت الأغنياء، المرصعة بالرخام، ذي الألوان المزخرفة، وإلى شرفاتها العريضة، وأضوائها الباهجة، ثم نظر خلفه إلى بيوت الفقراء المظلمة، حيث تكدست الأبنية إلى بعضها البعض، وفاحت منها راحت العفن!

فقال في نفسه: ليس بيني وبين أن أعبر هذا الشارع من البيوت المظلمة إلى البيوت المضاءة، سوى أن أبيع ضميري ببعض التواقيع في شركة المقاولات الحكومية التي أعمل بها! لكن هيهات هيهات، فأثني للشرفاء فعل ذلك؟! كيف سأرتضي لنفسي أن أتكسب ببيع ضميري؟ والله لأن أموت جوعاً أنا وعيالي أهون عليّ من فعل ذلك. ورغم ما يؤلني مما أراه من تكسب بعض الناس بالدين، حتى صار في كثير من الأحيان موئلاً للهمل والشذاذ، ورغم أن الكثير من أهله يعرضون بضاعتهم في أسواق المضاربة بأرخص الأثمان، فإن ذلك لن يبرر لي أن أرد معهم حوض القبائح، وأن أشاركهم أمرهم السيئ.

سأصبر نفسي وأهلي وأكرهم على العيش النزير. ولأن نأكل كسر الخبز اليابسة من كسب حلال أحبّ إلى نفسي من شرب الشهد المغموس بالحرام.

ثم حزم أمره ليعود إلى منزله، فنظر للمرة الأخيرة إلى أحياء الأغنياء، ففاجأه ما رأى ... لقد أظلمت جميع البيوت مرة واحدة، لم يكن يصدق ما تراه عيناه، ثم التفت خلفه، فرأى بيوت الفقراء تشع نوراً، فاطمئن بما كشفت عنه بصيرته، وعاد راضياً قانعاً إلى أهله.

دموع باردة

في ساعة متأخرة من الليل وقفت عند ضفة نهر برلين (الشبريه) المتجمد، فأشعلت (سيجارة)؛ لتجلب لها بعض الدفء، ثم أخذت تنقلها من يد إلى أخرى؛ ليكون لديها الوقت لتدس إحدى يديها في جيب ثوبها الرقيق. ملأت وجهها بالأصباغ حتى كادت تبدو كمهرج (السيرك)، ثم رسمت على وجهها الحزين ابتسامة كاذبة مصطنعة، كانت مسامير البرد القارس تنغرز في أطرافها، فتكاد تشل حركتها، لتترك علامات البارزة على جسدها، إلى جانب تلك التي خلفتها أنياب الذئاب البشرية عندما استباححت إنسانيتها، واستغلت ضعفها وحاجتها إلى قليل من الماء والخبز. كانت الحافلات تمر من أمامها في ذلك الطريق العتيق، فتطل الذئاب برؤوسها من نوافذ تلك الحافلات؛ لتعوي عليها كما لو أنها ظفرت بطريدة فسال عليها لعباها. كانت تعلم في قرارة نفسها حقيقة تلك الذئاب، لكن لم يكن لديها خيار غير أن تلعب معها لعبة الذئب والحمل؛ إذ إن أنيابها - وإن كانت تنهش بجسدها - تبقىها حية، حيث تعلم أنها إن امتنعت عن تأدية هذا الدور فسوف تسلم نفسها لفك الجوع، الذي لا نجاة حينئذ من أنيابه. وإذا كان البرد في تلك الساعة يقضم أطرافها، والذئاب تعوي عليها، فإن الألم كان يعتصر في صدرها، والهجوم تنزل على قلبها، كأنها السماء تطبق على الأرض، فتشعر برغبة جامحة في البكاء، لكن الدموع الباردة في عينيها جعلتهما كبحيرتين متجمدتين. رمت بعقب (السيجارة) التي كانت تمسك بها، ثم نظرت إلى الأعلى ونفخت الدخان المحشو بفمها، ثم صكت يديها ببعضهما، وأخذت تنفخ فيهما، ثم تحكما بسرعة عساهما أن ينقذها عن بعض من الدفء، ثم رمت بناظريها إلى النهر المتجمد لتستطلعها، وكأنها تتفحص نوعاً من أنواع (المكياج)، فذكرها منظره وجمود حركته بقسوة قلوب البشر، وجمود الدماء في عروقهم، وتبلد أرواحهم، وكيف أن ظلمهم وجودهم ألقى بها في هذا الركن المظلم من العالم، وهي بالكاد أتمت ستة عشر خريفاً من عمرها. تذكرت كيف أنها فتحت عينيها على الحياة لترى نفسها وحيدة في ملجأ اللقطاء، لا تعرف لها أباً شفوفاً ولا أمّاً رحيمة، فتلقفتها أيدي الذئاب البشرية؛ لتجعل منها سلعة رخيصة تباع بأبخس الأثمان، ولتقذف بها من يد إلى أخرى، كأنها دمية لا روح فيها، أو وردة مصنوعة من (البلاستيك)، ليس فيها حياة أو عطر، تُستعمل عند الحاجة ثم تُرمى أو تُهمل. هكذا ركبت قطار الضلالة حتى وصلت نهاية النفق المغلق، فعاشت فيه كالخفافيش، لا حياة لها إلا في الظلام، حُرمت من رؤية الشمس فلا تقع عينها إلا على سواد حالك، ولا تستطيع الوقوف إلا على صخر قاس تنكس رأسها لتمسكه بقدميها، ولم تعد قادرة على العيش إلا بين جدران هذا النفق المعزول عن بقية العالم، فلا يُسمح لها بالاتصال إلا بذيئاب الليل، الذين لا ينشطون إلا خلصة تحت جناح العتمة. حاولت الهرب مراراً من جحيم هذا النفق، لكنها اضطرت للعودة إليه؛ لأنها لم تعد تجد مكاناً بين البشر، الذين ضاقت صدورهم، وضنت ضمائرهم على أن يغفروا لها جرماً سبقت إليه مكبلة.

عندما كانت طفلة صغير كانت أغلى أمانيتها أن تنطق كلمة أمي ... أبي. وعندما شبت قليلاً وتفتحت زهور أنوثتها حلمت برجل شريف تأوي إليه، وتنشئ بكنفه عائلة سعيدة. وعندما كبرت أكثر أدركت أنه في عالم الوحوش لا مكان للأحلام، لا مكان إلا للمفترس أو الفريسة. وهكذا عرفت بعد قليل أنها كانت تعد لتكون من الصنف الثاني، وأن القانون في الغاب لا يعطيها الحق في التمرد على دور الضحية.

في تلك الساعة تمثلت لها ذكرياتها المريرة شبحاً مفرعاً فتضاعفت أحزانها، وازدادت شقوتها، وشعرت بأن واقعها المؤلم كدائرة من النار، تحيط بها من كل الجوانب، فإما أن تستسلم لقدرها، وتنتظر أن تلتهمها النار ببطء شديد، فتحس بلهيب الموت يحرقها شيئاً فشيئاً، أو أن تغامر باقتحام دائرة النار فتحترق دفعة واحدة ولا تجد الألم إلا مرة واحدة ... وقفت في تلك الدائرة لتقرر، فاختارت أن تقتحم النار؛ لتضع حداً لآلامها. وما أن بزغت خيوط الفجر من شقوق الليل حتى روي جسدها مهشماً فوق جليد نهر الشبريه.

المعلبات الفاسدة

وصل متأخراً، فهرول مسرعاً في الجناح الأيسر من الطابق الثالث، يحمل - كعادته - في يده اليمنى الحقيبة البنية، التي أهدتها له زوجته قبل أن يسافر للعمل بمعهد الدراسات الشرقية في هذا البلد، لم تكن الحقيبة من الجلد الأصلي، بل كانت من النوع الرخيص، لكنها كانت تعني له الكثير، إذ يصطحبها معه في جميع أعماله؛ لتذكره بزواجه، التي لم يرها منذ تسعة شهور، وبطفلته الصغيرة، التي قارب عمرها على السنة والنصف. كانت قدماء وهو يهرول في ذلك البهو الفسيح تطآن بساطاً أزرق اللون، ألقي على ظهره بين غرف تلك المكاتب، فبدا له كأنه جدول من الماء العذب، انعكست على محياه القبة السماوية، فتشربت تقاسيمه بزرقها. في حين كانت عيناه تهتزان في كهفيهما الغائرين بطريقة نواسية، وهما يأخذان صوراً ماسحة للأرقام والأسماء المحفورة على مربعات من القطع النحاسية المذهبة المثبتة على أطراف الأبواب الخشبية. توقف بحركة لا شعورية في منتصف ذلك البهو أمام ذلك المكتب. أعاد قراءة العنوان المكتوب (غرفة رقم تسعة، السيدة جوليانة) .. نعم، هذا هو مبتغاه، موعده مع هذه السيدة، مسألة العلاقات الثقافية في المعهد. كانت قد أرسلت له قبل يومين رسالة ترحو فيها حضوره إلى مكتبها، في الساعة الثانية ظهراً من هذا اليوم. نظر إلى ساعته حينها، فوجد أن عقرب الساعة قد استقر عند الساعة الثانية وسبع دقائق، فاستحضر على عجل عذراً؛ ليبرّر به تأخره، ثم قرع الباب، ودخل إليها. وما أن رآته حتى نهضت من خلف مكتبها، ومدّت يدها؛ لتصافحه بحرارة، وهي ترسم تلك الابتسامة الخبيثة، التي تشتهر بها، والتي لا تكاد تفارق ثغرها العريض. امرأة ربة، ممتلئة الجسم، بشرتها متقمحة، وجهها فيه شيء من الاستدارة، يتوسطه أنف عريض لكنه غير أفطس، مجاجين تخينين، اتصلا في طرفيهما من الأسفل، فكانا أشبه بحرشين من النباتات الشوكية، تحيطان ببركتي عينيها العسليتين الواسعتين، وفوق هذا كله تنتصب غابة شعناء من الشعر الحرنوبي الطويل الأسود في معظمه، خلا بعض الخصلات التي فوق الأصداع، كان الجفاف قد نال منها، فخصبها بلونه الرمادي. كانت قد جاوزت الخمسينات من العمر، لكنها رغم ذلك لا زالت تحتفظ ببعض الأنوثة، إلا أن لباسها الشتوي الثقيل ذي الألوان الداكنة، الذي لا يناسب حرارة هذا اليوم الصيفي شديد الرطوبة، قد سبب تعرق جسدها، فانتشرت رائحة كريهة في مكتبها. وما أن زكمت تلك الرائحة أنفه حتى اقشعر بدنه، لكنه لم يكن لديه حيلة سوى الصبر على هذا البلاء. ابتسم في وجهها، الذي طالما ذكره بالشجرة التي أحدثت في جبهة سيناء في حرب أكتوبر. ولم يكن يدري سبب تلازم هذا الحدث مع رؤيته لتلك السيدة. ربما كان وجهها يشبه ساحة المعركة، ولكونه ممن شاركوا في تلك الحرب، فإنه يستعيد صورها مع كثير من الأحداث التي يمر بها. غير أنه لا يستطيع أن يحزم بصحة هذا التفسير، وسيبقى هذا الأمر بالنسبة له من الألباز الغامضة، التي تظهر بين الحين والآخر في ساحة شعوره، وفي تداعي أفكاره. لم يستطع الانتظار طويلاً، فاستفسر منها عن رغبتها المفاجئة في رؤيته، فأخبرته بأنه سيتم مساء غد تكريم كاتبة وناقدة

سينمائية عربية مشهورة، وسيتم منحها جائزة قيمة من قِبَل جهات عدة تدعم أدب النساء في العالم العربي. ذكرت له اسم تلك الكاتبة، لكن الغريب أنه - رغم عمله الطويل ناقدًا أدبيًا متخصصًا بالأدب العربي المعاصر - لم يكن قد سمع بذلك الاسم. عبّر عن عدم معرفته بها، فناولته ملف أوراق (بروشور) يتضمن سيرة تلك الكاتبة، بالإضافة إلى روايتها الثالثة، التي ستكرم بسببها. وقد أخبرته بأنه يتوجب عليه غداً المشاركة باسم المعهد في حفل تكريم الكاتبة، ولا بد له من تجهيز كلمة للمشاركة، فخرج من عند السيدة جوليانة، وتوجه من فوره إلى مكتبه، والفضول يملأ نفسه للتعرف على هذه الكاتبة والناقدة السينمائية العربية، التي سيتم تكريمها ومنحها جائزة قيمة، في حين أنه لم يسمع بها من قبل. جلس خلف مكتبه مسترخياً، حل رابطة العنق، وفك الأزرار العلوية من قميصه، ثم قرب إليه (البروشور)، وبدأ يتعرف على سيرة الكاتبة. كان أول ما وقعت عليه عيناه تاريخ ميلادها، فقال في نفسه: لا بد أن هذه الكاتبة تتمتع بعبقريّة فذة، وموهبة عظيمة، حيث لا زالت في الثلاثينات، وترشح لنيل هذه الجائزة، ولم تكتب إلا ثلاثة روايات، حتى استحقت بعدها التكريم!! ف شعر بالإعجاب والافتخار بأن يوجد بين كتاب العرب وأدبائهم مثل هذه الشخصية المبدعة، فقد عرف خلال تجربته الطويلة عدداً لا بأس به من الأدباء العرب، الذين لم يحصلوا على التكريم حتى سقطت أسنانهم، وملأت رفوف المكاتب مؤلفاتهم، وشاخت أقلامهم، ومنهم من مات دون أن يسمع به غير المقربين منه. قرأ المزيد فزاد إعجابه بهذه الكاتبة، حيث تبين له أنها قد حصلت على شهادة علمية من جامعة معروفة، ولم تكن بعض دوائر هذا البلد هي السبّاقة لتكريمها، بل سبقها إلى ذلك عدة دوائر في عدة بلدان أخرى، إذ قاموا بالاحتفاء بها، وتكريمها، وكذلك ترجمة روايتها الأخيرة إلى لغاتهم. أما الذي لفت انتباهه أكثر فقد كان عدد الطباعات الكثيرة التي طبعت في العالم العربي من روايتها على نفقة جهات خاصة. كل ذلك جعله يتشوق للتعرف على هذه المرأة الرائعة، التي استطاعت بإبداعها وتميزها أن توصل رسالة واضحة للعالم بأن المرأة العربية لا تقل في أصالتها وإبداعها عن نظيراتها في بقية أصقاع العالم. شطح به الخيال وهو يتصور نفسه غداً واقفاً بكل فخر واعتزاز بين الحضور، وأخذ يقلب في ذهنه الكلمات الجميلة التي سوف يطري بها تلك الكاتبة، ويشكرها على أنها رفعت رأس الأمة التي تنتمي إليها. بل شطح به الخيال حتى تصور أن تلك الكاتبة ستهدي التكريم الذي ستحظى به غداً للمرأة العربية ككل. لكنه سرعان ما تنبه إلى ضرورة قراءة روايتها؛ حتى يستطيع التعرف على إبداعها أكثر، فأمسك الرواية يقلبها من الأمام والوراء، فلاحظ أن عدد صفحاتها يربو على مئتي صفحة. فتح الصفحة الأولى، وبدأ يقرأ.. مرت الساعة تلو الساعة، دون أن يشعر بالملل، بل كانت كل صفحة تشده أكثر لقراءة الصفحة التي تليها، حتى أنه لم يدرك سقوط الشمس في وكرها، وأن الليل قد نفث أنفاسه في وجه النهار، فصبغه بالسواد الحالك. ظل يقرأ، ثم يقرأ، حتى الكلمة الأخيرة، عندها فقط انتبه إلى أن الساعة قد قاربت الحادية عشر مساءً. أغلق الرواية، ثم استند بظهره على بطن الكرسي، واستسلم لصمت طويل، لكنه ما لبث أن أحس فجأةً بأن الرائحة الكريهة التي تنبعث من جسد السيدة جوليانة تملأ المكان من حوله، وتستقر بأنفاه، حتى تكاد تخنقه، ف شعر بحالة من الغثيان الشديد، فأسرع إلى الحمام، وتقيأ الكلمات التي كان قد

قرأها في الرواية، كلمة كلمة، ثم ذهب إلى المغسلة؛ ليتوضأ، ويتطهر من الكلمات التي علقت بذهنه من تلك الرواية، التي لم تكن إلا قاموساً من البذاءات والفواحش، وقصص الخيانة، والهوس الجنسي. ومما أثار دهشته أنه على الرغم من صغر سن الكاتبة فإنها تلم بموسوعة مسميات القبائح والقاذورات، فلو حاول - وهو الأديب الناقد - أن يكتب جميع ما يعرفه من الكلمات الساقطة، لما استطاع أن يكمل صفحة واحدة، فكيف استطاعت أن تكتب مئتي صفحة تفترى فيها على قومها، وتحقرهم بوصمهم بما ليس فيهم فاش؟! لقد ظهرت له الآن جميع الحقائق جلية أمام عينه، فلم تكن هذه المسكينة سوى أداة رخيصة، أُستغلت أبشع استغلال كسكين تمسك بها بعض تلك الدوائر الظلامية المغلقة في تلك المجتمعات، في حين ينغرس نصلها في قلب مجتمعاتنا. وكأن تلك الدوائر المغلقة تريد أن تصدّر أمراضها الاجتماعية وعقدها النفسية إلينا. فلا شيء يغيظ هذه الدوائر مثل فضيلة العفة! وتحت باب حرية الرأي والتعبير يتم صنع حجارة الشطرنج التي سوف تؤدي دورها في اللعبة الهزلية، ثم تُرمى على الهوامش. إن شأن هؤلاء الكتاب الذين يتم تصنيعهم في تلك الدوائر الضبابية كشأن المعلبات الفاسدة، التي ما فتأت تطالعا بها الصحف العربية بين الحين والآخر. معلبات فاسدة يستوردها تجار أفسد ...، فتراها تهجم على أسواقنا وموائدنا هجوم القضاء المبرم الذي لا مفر منه، وقد انتشرت إعلاناتها في وسائل الإعلام، كما تنتشر النار في الهشيم، أو كسيل العرم الذي حرر من أسره خلف سد عظيم، يصل صدي جبلين شاهقين، يكتسح كل ما أمامه، فيغمره بماء اختلط بالطين والحجارة وأغصان الأشجار، فما أن يركد مسيله، وتضربه هواجر الشمس بأشعتها، حتى ينحسر عنه مستنقع آسن، يصعب إزالته فيما بعد. كذلك تلك المعلبات الفاسدة، التي ينخدع الناس بدايةً بأسعارها الرخيصة، وبالإعلانات الكاذبة التي تزينها لهم. فما أن تتكشف حقائق فسادها، حتى يقف الناس على بشاعة العملاء الذين روجوها، وعلى الأضرار النفسية والصحية التي خلفتها بينهم. وقصة المعلبات الفاسدة هذه لا تشمل الأطعمة فحسب، بل تنال كافة ضروب الحياة، بما فيها الأدب. حتى أنك لترى النكرة يصبح بين ليلة وضحاها كاتباً مشهوراً، بفضل ما يصدق عليه من العطاء والثناء من قِبل تلك الدوائر، التي تقبض الثمن مقدماً من ذلك النكرة، بأن يصبح وبالاً على أمته، لا هم له إلا التشهير بها، والخط من قدر أناسها، فإذا الأضواء تغمره، والأقلام تمجده، والشاشات تعرضه، والمطابع تقدمه.

في مساء اليوم التالي وقف وسط ذلك الحشد الكبير من الحضور؛ ليقول رأيه بوضوح شديد: تعرّف الكاتبة نفسها في بداية الرواية بأنها كاتبة متحررة، لكنني - كناقد أدبي محترف - أرى أنه كان من الأجدر أن تعرف الكاتبة نفسها بأنها كاتبة متحللة، تتخصص بقصص الدعارة والخيانة والشذوذ، وأنها لا تعدو أن تكون إحدى المعلبات الفاسدة، التي ترسل بها بعض دوائركم المريضة إلى بلادنا. وبكل تجرد أقول: إن هذه الرواية يمكن أن تنتهي إلى أي شيء في الدنيا إلا الأدب.

وما هي إلا أيام قليلة حتى بعثت إليه السيدة جوليانة رسالة خطية، تخبره فيها بأنه تم إنهاء عمله في ذلك المعهد!

أوغسطين

جلست بين تلك الصفوف المزدحمة، انتظر الموعظة مع بقية الناس، وما هي إلا لحظات حتى أطل علينا شيخ مهيب الطلعة، طاعن في السن، أثقلت الحياة كاهله، فأنحنى ظهره، يمسك بيده اليمنى عصاً عتيقاً يتوكأ عليها، كان وجهه يشع نوراً، وتتبدى عليه علامات التقوى والصلاح. تقدم الصفوف، وارتقى المنبر ببطء شديد، ثم بدأ كلامه بالحمد والتسليم، وأخذ بعدها يحدث الناس بما لديه من معرفة وحكمة في أمور الدنيا والدين، مرفقاً قلوبهم ومرغباً إياهم بما للمصالحين عند الله من أجر وجزاء. كانت كلمات الشيخ وانفعالاته تترك في النفس أثراً بالغاً، فلا ترى من حولك إلا عيوناً قد ترقق فيها الدمع، والخوف من الله.

استكمل الشيخ موعظته بحكاية أشار إلى أنه وقف عليها شخصياً قبل ستين سنة، عندما كان يعيش في قرية ريفية فقيرة، لم تكن قد وصلت لها الخدمات المدنية، كان عمره آنذاك يناهز الخامسة عشر، ترافق قدوم شهر رمضان مع فصل الشتاء، فاجتمع بعض المصلين - الذين كان أكثرهم من الشباب الصغار - في ليلة السابع والعشرين، بمسجد القرية، الذي بُني بالقرب من مقبرة، في مكان معزول عن بيوت القرية بين الرياض؛ يبتغون التعب في ليلة القدر، لكن شدة البرد وغزارة الأمطار جعلت معظم المصلين يغادرون الجامع قبل منتصف الليل، ولم يبق إلا بعض الفتيان، تتراوح أعمارهم بين العاشرة والرابعة عشر، حجزتهم الأمطار وظلمة الليل، والخوف من الوحوش الضارية التي تنتشر في البرية حول القرية من العودة إلى منازلهم، التي تقع في أماكن متباعدة من أطراف القرية. كان معهم شاب ناهز الحلم، اشتهر بين الناس بشره وسوء أخلاقه، فكان يسيء للحاضرين بالشتيم والضرب ويعبث بأثاث الجامع، ولا يجروء أحد على منعه؛ خوفاً من شروره وظلمه، بل إنه لم يكن يتورع عن سب الدين والذات الإلهية جهاراً في الجامع.

توفي والد هذا الشاب وتزوجت أمه من رجل آخر فعاش حياة قاسية من التشرد بين أقاربه، الذين أشرفوا على تربيته في ظاهر الأمر، لكن لم يكن لهم هدف سوى سلبه قطعة الأرض الصغيرة التي تركها له والده، ففسدت طباعه، واعتلت أخلاقه، حتى أصبح مضرب المثل بالسرقة، وقلت المروءة بين أفراد القرية. كان هذا الشاب متمرداً على كل القيم والعادات الموجودة في بلده، بما فيها التعاليم الدينية، بل كان يجاهر بتحدي الحدود الشرعية، فلم يكن يصوم في نهار رمضان، ويظهر لجميع الصائمين ذلك من خلال تدخينه التبغ في الطرقات العامة. وعلى الرغم من ذلك أتى في تلك الليلة للمسجد، وهو يعلم أنها ليلة القدر. من هنا كان حضوره محل استنكار من جميع الموجودين، ولم يشك أحد في أنه أتى ليقضي الوقت في التسلية، والسخرية من أقرانه، الذين جاءوا للصلاة. وعندما تجرأ أحد الحاضرين بتعنيفه ولومه على سلوكه المشين داخل الجامع، اعتدى هذا الشاب الشقي عليه بالضرب والشتيم، ولم يستطع أحد من الحاضرين إيقافه. وفي وقت متأخر من الليل اشتد هدير الرعد، وأخذت الريح الباردة تهز أبواب الجامع ونوافذه الخشبية المهترئة، وبدأت قطرات الماء ترشح من السقف الطيني، فأخذت الجميع هالة من الخوف والرعب الشديد، من أن

تهدم الأمطار عليهم سقف الجامع وجدرانه المتصدعة، أو أن تقتحم عليهم الحيوانات الضارية أبواب الجامع الضعيفة. أما ذلك الفتى الشقي فكان يسخر من ارتعاد فرائص أقرانه وارتعاشهم من البرد. وما هي إلا لحظات قليلة حتى أطفئت قطرات المطر - المتسربة من شقوق السقف - السراج الوحيد الذي ينير الجامع، فزاد ذلك من خوفهم وهلعهم، لكن ذلك الشاب قال لهم بغرور شديد وهو يضحك: لا تخافوا، أيها الجبناء، إن معي علبة كاملة من عيدان الثقاب، أحفظ بها في جيبتي لإشعال السجائر، سوف أنير لكم السراج من جديد، وأخذ يشعل عيدان الثقاب الواحد تلو الآخر، لكن عيدان الثقاب كانت تنطفئ في كل مرة دون أن يشتعل فتيل السراج، حتى يئسوا من إمكانية إنارة السراج، وبينما هم على هذه الحال من الخوف والظلمة في ذلك المكان سمعوا صوتاً ينادي من على سقيفة ذلك الجامع، يقول: يا مسكين، قد أطفأت النور في قلبك، فكيف يمكن أن ينار السراج بيدك؟! وعندما سمعوا هذا الصوت يأتي من الظلام الدامس أصابتهم الرهبة وأمسكوا بتلابيب بعضهم بعضاً يرتعدون من ذلك الصوت المجهول. أما ذلك الشاب الشقي فبدت أوصاله ترتجف، وأخذ يتلفت حوله من الخوف، ويصيح بأعلى صوته: مَنْ هناك؟ ... من ينادي؟ ... من أنت؟ ... تكلم. لكن صاحب الصوت لم يتكلم، وسمعوا صوت أقدام تتحرك عبر سلم السقيفة، وتتجه نحوهم، فزاد ذلك من اضطرابهم، حتى فكر بعضهم بالصراخ من شدة الخوف، أما ذلك الشاب الشقي فقد أخرج من جيبه خنجرًا وبدأ يصرخ بخوف وفزع، وهو يقول: اقترب مني؛ لأغرس هذا الخنجر في صدرك، وبدأ يشعل عيدان الثقاب، ويصوبها إلى ناحية سلم السقيفة. وما هي إلا لحظات حتى ظهر شبح إنسان أسود، يخط طريقه إليهم عبر الظلمة، وأخذ يقترب منهم شيئاً فشيئاً، وعيونهم تكاد تدور من شدة الخوف، حتى صار ذلك الشبح على مقربة منهم، وأخذوا يمعنون النظر إليه على الضوء الخافت المتقطع لعيدان الثقاب الضعيفة المهتزة مع ارتجاف يد الفتى الشقي، فإذا بالجميع يصيحون عندما ظهرت لهم ملامح ذلك الشبح، يصيحون: فلان ... إنه فلان، فأجابهم: نعم، ها أنا ... لقد كان شاباً من قريتهم يعرفونه جميعاً، وكذلك يحبونه؛ لأخلاقه الحسنة، وسعيه الحثيث إلى فعل الخير، ومساعدة الأراامل والضعفاء في القرية. كان يلزم تأدية كل الصلوات في الجامع، حتى عُرف بذلك، وليس ذلك فحسب، بل كان قوي الشخصية، وشديد البأس.

شعر الفتیان بالسعادة عندما رأوا هذا الشاب، وبدأت طيور الخوف والرهبة تغادر قلوبهم، لاسيما أنه أخيراً أتى من أبناء قريتهم من يستطيع أن يضع حداً لتصرفات الشاب الشقي، ويوقف استهتاره، وأذاه لهم. تتمم الشاب الشقي بكلمات يعبر بها عن أنه كان يعرف منذ البداية أن الصوت لأحد أبناء القرية من الذين يتعبدون في سقيفة الجامع، وأنه لم يخف أبداً عندما سمع الصوت. لكن الشاب الصالح عاجله بالقول: أما أن لك يا أخي أن تتوب إلى الله؟ ألا تعرف في أية ليلة أنت؟ أما تخشى أن يأمر الله الأمطار فتهدم عليك سقف الجامع، أو أن يسלט عليك الحيوانات الضارية فتجعلك إرباً ممزقة؟! سكت الشاب الشقي ولم يجب بكلمة واحدة، فطالما أخفى احترامه لهذا الشاب؛ إذ كان الوحيد في القرية الذي يناديه بكلمة يا أخي، في حين كان يناديه الجميع بلقب والده، فيقولون له: ابن الأعرج، أو السارق، أو غيرها من ألقاب السوء. ثم اقترب الشاب الصالح منه أكثر، ووضع يده على كتفه، وقال له: هل تعلم يا أخي لماذا لم تستطع إشعال

السراج حتى الآن؟ ذلك لأنك أطفئت نور الله في قلبك، فأطفأ الله النور في يدك! كم بقي معك من عيدان الثقاب؟ أجابه على الفور سوف أعدها! وبعد برهة من الوقت قال له بقي معي خمسة عشر عوداً. فقال الشاب الصالح نحن هنا تسعة أشخاص، ما رأيك في أن تجرب إشعال السراج بستة عيدان؟ وإذا لم تستطع فأعط كل واحد منا عوداً واحداً؛ ليحاول مرة واحدة أن يشعل السراج، لكن قبل أن يحاول إشعال السراج فليدع الله في سره أن يستجيب له. أوماً الشاب الشقي برأسه أنه موافق على هذه الفكرة. وفعلاً أخرج عيدان الثقاب، وأعطى عوداً لكل واحد منهم، وأبقى معه ستة عيدان، فبدأ يشعلها الواحد تلو الآخر، لكن سرعان ما كانت تحترق دون أن يشتعل فتيل السراج، وعندما نفذت العيدان الستة، قال له الشاب الصالح: ألم أقل لك من يطفئ النور في قلبه يطفئ الله النور في يديه! ثم بدأ بقية الفتيان كل واحد يحاول أن يشعل السراج بالعود الذي معه، لكن دون جدوى. احترقت جميع العيدان بين أيديهم، ولم يبق إلا العود الذي مع الشاب الصالح.

يقول الشيخ: فطلب منا ذلك الشاب أن نتحلق حوله بالقرب من المحراب، وأن ندعو الله جميعاً أن يستجيب لدعائه الذي سوف يدعو به في سره. وحيث كنت أقربهم إليه فسمعت ذلك الشاب الصالح يقول: اللهم أنر بيتك لمن جاء يريد طاعتك، وبيتني مرضاتك، وأجعل إنارة السراج سبباً في هداية أخينا فلان، وأنفع بهديته المؤمنين، وكان يقصد به الشاب الشقي، وبعد أن أمتاً جميعاً على الدعاء، قال الشاب: بسم الله، ثم أشعل عود الثقاب، وقربه من السراج، فإذا بوهج عظيم يخرج من السراج، ينير جميع أركان الجامع، ويطرد رهبة الظلمة. وما هي إلا لحظات حتى توقفت السماء عن الهطول، وتوقفت الرياح عن الأزيز، وساد الصمت بيننا، ولم يقطعه إلا تلهجات صدر ذلك الشاب الشقي، الذي أخذ يبكي بحرقة شديدة، ويقول: هل يقبلي الله يا شيخ بعد أن فعلت كذا وكذا، يقصد بذلك أفعاله الشريرة السابقة؟ فأخذ الشاب الصالح يهدئ من روعه، ويقول له: يا أخي، إن الله واسع الرحمة، وإن الله قد وعد الذين يتوبون إليه أن يبدل أعمالهم السيئة بالحسنات.

وهنا أخذ الشيخ العجوز الواقف على المنبر يبكي بكاءً شديداً حتى أشفق عليه الحضور، ثم تابع يقول: ذهب ذلك الشقي فتوضأ، وأعلن في المحراب توبته الصادقة لله، وتنزلت السكينة على أولئك الفتيان، فأمضوا ليلتهم بالصلاة والذكر حتى طلوع الشمس، وبعد هذه الليلة حسنت توبة ذلك الشاب، واستقام حاله. أما الشاب الصالح فلم تمض أعوام قليلة بعد هذه الحادثة حتى توفاه الله إليه.

توقف الشيخ عن الكلام مرة أخرى، وأجهش بالبكاء من جديد، وبعد أن هدأت نفسه قال: لم أحزن على شيء في حياتي الطويلة قط مثل حزني على موت ذلك الشاب الصالح، وليس لي عند الله عمل أرجوه أفضل من تلك الليلة برفقة أولئك الفتية في جامع تلك القرية الصغيرة.

أنهى الشيخ الجليل الموعظة، وذكر الناس بعمل الخير، ونهاهم عن فعل الشر، وأوصاهم بنشر المحبة والعمل الصالح بين الناس، ثم قضيت الصلاة وبدأ الناس يغادرون الجامع تباعاً، وكثيراً منهم يصر على تقبيل يد ذلك العالم الجليل قبل ذهابه، وهو يرفض ذلك، وبعد أن فرغ الجامع من معظم المصلين، كنت لا أزال

أرقب ذلك الشيخ بعيني، حتى رأيته جلس إلى جانب المحراب وحيداً، وهو يستغرق بصمت عميق، فسرت إليه، واقتربت منه، فأحس بي، وفتح عينه، فبادرته بالسلام، واستأذنته بالجلوس إليه، فأذن لي. عرفته نفسي، وقلت له: إنني أتيت من مكان بعيد؛ لأستمع إلى موعظته، وأنتفع بحكمته، وذكرت له أنني تأثرت كثيراً بالقصة التي رواها على المنبر، فطلبت منه أن يزيدني في الموعظة، وألححت عليه في السؤال، فقال لي: يا ولدي، يكفيك من العبرة أن تعلم أن الدعاء الصادق إذا خرج من قلب صادق، فإنه مجاب عند الله لا محالة، ولو بعد حين. فقلت له زدني يا سيدي، فقال لي: يا ولدي، هل تعلم ماذا حدث لذلك الشقي الذي تاب الله عليه ببركة صدق دعاء الشاب الصالح؟ قلت له: أخبرني يا مولاي، ماذا حدث له؟ قال: يا ولدي، إن ذلك الشاب الشقي هو نفسه الشيخ الذي جئت اليوم من مكان بعيد للاستماع إلى موعظته، والذي تراحم الناس للسلام عليه، وإظهار الاحترام له. فبعد أن كان الناس ينادونه باللص، وابن الأعرج، أصبح اليوم ينادونه بالشيخ الجليل، والعالم التقي ... ثم أجهش الشيخ بالبكاء، فانكببت على يده أريد تقبيلها، لكنه أبى ذلك، ودعا لي بالخير.

المتنفذ

كان الليل غارقاً في مستنقعه الأسود، والسماء تنزف دمها من المزاريب السخية، فارتدت القرية حلتها الشتوية، وتقهقرت بيوتها الحجرية من شدة الخوف، الذي يتهدد أسقفها الطينية بالانهيار. في ذلك الكوخ الحجري إلى جانب المدفئة اليدوية كانت صرخات امرأة تعيسة نحيلة تتعالى، وقد اجتمع حولها عصبة من نساء القرية، إنها تجاهد في لحظات المخاض الأخيرة، ساعات طوال مرّت من الألم؛ لتلده رغم الشقاء ليعيش في الشقاء ... رغم القهر ليحيا في دياجير القهر. حينما انطلقت الحناجر المؤنثة تنشد الزغاريد؛ لتبشر بقدومه، حضنته بين ذراعيها، ورسمت بسمه شاحبة أنستها آلامها القاتلة.

وما أن مضى شهر على ولادته حتى جفت الطرقات الموحلة، واستعادت السماء صفاءها، وسطعت شمسها، ونمت عروق القمح، فبدت حقول القرية مروجاً خضراء. لكن ما يلبث أن يتسلل اليأس إلى الأفئدة عندما يعلم المرء أن هذه المروج الجميلة ليست ملكاً للفلاحين، بل يملكها المتنفذ الذي اغتصب كل شيء، ولم يُبق لأحد من الفلاحين شيئاً. وعلى الرغم من أن أهل القرية هم الذين يعملون في الأرض، يزرعون ويحصدون ويدرسون، فإنهم لا يجنون ثمرة تعبهم، بل يضيع كل هذا الجهد سدىً، مقابل أجرٍ بخس يتقاضونه من المتنفذ، بينما يأخذ هو جميع ما تجود به الأرض ... إذ يفرض سيطرته على أهالي القرية بالقوة، يسانده في ذلك عصابة من المرتزقة، يحرسونه بالحديد والنار. ومن ثم كان يتوجب عليه أن يعيش ويتعرع في قلب هذه الغابة التي توشحت بضباب القهر والاستغلال؛ فقد قُتل والده على أيدي رجال المتنفذ قبل ولادته بشهرين.

كان ذلك عندما حاول منعهم من ضرب امرأة مسنة سرقت من محصول المتنفذ؛ لتنقذ طفلاً يتيماً من هلاك الجوع. كانت تعيله بعد أن مات جميع أفراد أسرته في وباء الطاعون الذي حل قبل سنوات بالقرية. لم يستطع والده أن يرى مرتزقة المتنفذ يضربون هذه المرأة المسنة ويقف مكتوف اليدين، فاندفع كالبركان مفجراً ما بداخله من قهر الظلم، متحدياً بصدرة البنادق، فما كان رد المرتزقة إلا أن أطلقوا العنان لرصاصاتهم، فاخترقت جسده، وخر صريعاً ... ألم تلك العجوز أن مات هذا الرجل بسببها، فما كان منها إلا أن حملت أمتعتها، واصطحبت اليتيم مغادرة القرية. ومنذ ذلك الوقت لم يعرف أحد من أهل القرية عن العجوز ویتیمها أي شيء.

توالت الأيام والشهور والسنون، حتى مضى على صاحبنا ثمانية عشر عاماً من البؤس والشقاء، ذاق خلالها مرارة الحياة، وشظف العيش، كانت الأيام تحمل إليه الأحزان جملةً، كما تحمل الرياح كثران الرمال. توجب عليه أن يعمل في أرض المتنفذ؛ ليعيل نفسه ووالدته، حيث تعرّف هناك إحدى بنات القرى المجاورة، واستطاع أن يلفت انتباهها إليه بشجاعته وقوته، ومع مرور الأيام التف بين قلوبهما عقد من الحب الطاهر العفيف. وعلى الرغم من حرصهما الشديد على إبقاء حبهما سراً والتكتم عليه، فقد افترض

أمرهما، وأصبحت علاقتهما على كل لسان، فشكاه والدها إلى المتنفذ، الذي طلب رؤيتها، فلما بدت له أعجبته، فأغرى والدها بالمال؛ ليغصبها على الزواج منه.

ثار بركان غضبه، وأخذ يلطم وجهه، ويضرب رأسه بالجدار، ويسب الظروف التي فرقت بينه وبين من أحب، ولكن دون جدوى؛ فلم يستطع أن ينقذها من براثن المتنفذ. ومنذ ذلك الحين أصبح قليل الكلام، شرس الطباع، كثير الشرود. وبقي على هذه الحال إلى أن تعرف عصابة من رفاق السوء، فأغراه المال الوفير الذي يحصلون عليه من قطع الطريق، لاسيما وأن المال هو الذي فرق بينه وبين تلك الفتاة. وهكذا بدأ رحلته في الدروب المظلمة، وارتقى مع الأيام ليصبح رئيس العصابة. واتخذ لنفسه لقب أدهم، وأخذ يغير مع عصابته على الأرض التي يستولي عليها المتنفذ؛ ليسرقوا المحاصيل، فما كان من المتنفذ إلا أن استقدم عددًا كبيرًا من المرتزقة للقضاء عليهم.

كان الليل قد انتصف عندما فوجئ وعصابته بمحاصرة مرتزقة المتنفذ لهم من جميع الجوانب، فدارت بينهم معركة شرسة في جوف الليل، تم خلالها تبادل إطلاق النار بين الطرفين لعدة ساعات قُتل خلالها معظم أفراد عصابته، أما هو فقد استقرت إحدى الطلقات في ساقه، واستطاع الإفلات من الحصار، والاختفاء في الهشير المحيط بالجبل، ثم توكأ على جرحه إلى أن اقترب من أحد البيوت المتطرفة بإحدى القرى المجاورة، وأخذ يطرق الباب وينادي بصوت يملؤه الصخب والألم، فرد عليه صوت أجش من داخل الكوخ: من يطرق الباب في منتصف الليل؟ فأجابه: أرجوك افتح الباب إني مصاب .. أسرع صاحب البيت إلى فتح الباب ليرى شابًا له بسطة في القامة، يستند على الجدار واقفًا على قدم واحدة، بينما أغرقت ساقه الأخرى الدماء، كما لو أنها صُبغت "بالحناء"، فأسرع؛ ليساعده في الدخول إلى الكوخ، دون أن يسأله عن حادثه شيئًا، فقد كان الجرح بليغًا ويحتاج إلى أعمال الإسعاف بأسرع وقت ممكن.

همس بحزم: يجب أن أخرج الرصاصة من ساقه، فانتفضت زوجته حالما سمعت ما همس به كما لو أنها رأت عفريتًا: ما الذي تقوله، كيف لك أن تفعل ذلك؟! لست طبيبًا، ولم يسبق لك أن فعلت ذلك، فجاء جواب الزوج حازمًا: سأفعل ذلك الآن .. وأنزل السكين إلى الجرح يداعبه بلطف .. وتمكن في النهاية من إخراج الرصاصة وتضميد الجرح.

مرت أيام .. فبدأت جراحه تلتئم وحالته تتحسن، حكى خلالها لصاحب الدار قصته منذ البداية، من قتل أبيه قبل ولادته إلى الحياة القاسية التي عاشها وهو طفل صغير، ثم فقدانه الفتاة التي أحب، ثم التحاقه بقطاع الطرق .. إلى حادثته هذه. وهنا فاضت الدموع من عيني صاحب الدار، وأخبره أنه هو اليتيم الذي كان برفقة العجوز، التي مات من أجلها والده، وأنه مدين له ولوالده بحياته. فردَّ بأنه قد أدى هذا الدَّين بالفعل، عندما أنقذه من مرتزقة المتنفذ، وآواه في منزله. فأخذ كل منهما يبكي ويحتضن الآخر.

مضى على إصابته حوالي شهر، فتحسنت حالته، وأصبح قادرًا على المشي هوينًا. وقد لفت انتباهه أثناء إقامته قدوم رجال مسلحين مرارًا لصاحب الدار في جوف الليل، فأستفسر منه عن هؤلاء الرجال، فأجابه: إنهم ثوار يعملون ضد ظلم المتنفذ.

فطلب منه أن يعرفه إياهم، وأبدى له استعدادده ورغبته للعمل معهم ضد هذا الطاغية، الذي تهادى في ظلمه للضعفاء. فرح صاحب الدار لسماعه هذا الكلام، ووعدته بأنه سيعرفه إياهم حالما يحضرون في المرة القادمة.

مضى عدة أيام وهو ينتظر بتلهف مقابلة الرجال، حتى جاء المساء الذي حضروا به فتعرفوه وأعجبوا به، فأطلعه أحد الرجال الحاضرين - كانوا ينادونه في المجلس بـ معمر سبع القدم - على مخطط عملهم، وأخبره بأنهم يخططون الآن لمهاجمة مقر المتنفذ خلال اليومين القادمين، فأبدى الرغبة الشديدة بالاشتراك معهم في الهجوم، وأنه على استعداد لقتل الأوغاد المعتدين، وحرقتهم ولو كان زيت النار دمه، فأجابه معمر سبع القدم: عشت يا بطل، هذا هو الحر ابن هذه الأرض الحرة، جهز نفسك إذاً لتشارك معنا بالعملية القادمة، وسوف نخبرك بوقت التحرك عندما يكون كل الرجال قد جهزوا.

غادر الرجال الدار، وظل أدهم ينتظر ذلك الموعد بفارغ الصبر، إلى أن جاء اليوم الذي تحدد فيه وقت التحرك، سيكون موعد الهجوم مساء يوم الجمعة بعد منتصف الليل، وقد تم تجهيزه بالعتاد. جاء الوقت المتفق عليه، وانطلق الرجال متخفين بين الهشير والوديان إلى أن كانوا على مقربة من المزرعة التي يسكنها المتنفذ ومرتزقته، وعندها أعلن قائد الثوار أن الوقت قد حان لبدء الهجوم، وقال: يا إخوتي، هذا اليوم هو يوم العزة، اليوم الذي ترخص فيه دماؤنا فداءً لبلادنا. وبعدها انطلقت بنادقهم تعزف لحن النار، لحن الحق، تقدم الثوار إلى داخل المزرعة، يقاتلون بشراسة وتصميم، وكان أدهم على رأسهم، يحصد المرتزقة بمنجله الناري، ويتوغل داخل المزرعة بثبات، وبعد عدة ساعات من العراك المستميت بين الطرفين أوشكت ذخيرة الثوار على النفاد، فأوعز القائد بتراجع الجميع بعد أن كبدا جماعة المرتزقة خسائر فادحة، لكن أدهم كان قد وصل إلى مستودع المعدات والوقود وقد فرغت ذخيرته من الطلقات، فرفض التراجع، وقال بصوت مرتفع: مازال معي رصاصة أخيرة، ولا خير بها إذا لم تبذل في سبيل الحق، وارتقى سطح خزانات الوقود، محاولاً إشعال النار فيها، وهو يردد فداك يا أرضي، لكن أحد أفراد المرتزقة أبصره فصوب النار إليه، فأصاب منه مقتلاً، فخر صريعاً مغرقاً بدمه، ولكن النار اشتعلت بدمه وجسده، وسرت إلى العتاد والوقود فتحول المكان إلى كتلة عظيمة من اللهب تبتلع مقر المتنفذ وتحوله إلى رماد وحطام. لقد جعل أدهم من نفسه شعلة تحرق مغتصبي حقه، وتنير السبيل للثوار من بعده، ومن دمه ماءً تروي حقول القمح في بلده، وتروي تراب أجداده، وترقد دم الأحرار السابقين من بني جلدته، كان رفاهه يراقبونه بكل فخر واعتزاز، يرددون والدمع يهيم سدياً من مآقيهم: انتظرنا يا أدهم .. انتظرنا يا شهيد .. فنحن بك لاحقون .. نحن بك لاحقون.

معلم الصبيان

"إن الفلاسفة العظماء - كسقراط وأفلاطون وأرسطو - لم يبلغوا عظمتهم الحقيقية إلا بقدر ما بذلوه في سبيل الارتقاء بالإنسانية..."

هكذا بدأ معلمي درس التربية الأول، نظرت إليه بعيون يملؤها الفضول لمعرفة خبيثة الأسرار، ونفس مشرّبة لمجاهيل المستقبل، وعقل شره لالتهام موائد المعرفة من كافة أصنافها، فلامس حديث هذا المعلم في نفسي هوى طالما دأب أحلام يقظتي عن أولئك الأفذاذ من عقلاء الرجال والنساء، وعباقر الأمم، الذين ما انفكوا يتصدرون الريادة في قيادة أقوامهم لما فيه خير الدارين، فهم الأنوار التي تطرد أشباح الظلمة، وهم الحقيقة التي تدفع زيغ الأوهام. ذلك المعلم بقامته الشاحخة، وكلماته الهادئة، وحركاته الساكنة، استحوذ على اهتمامي، فبت أراقب عن كثب سيرته، وأتابع أخباره في الدرس وخارجه، وانصت بتفرس وحذر لكلماته وإشاراته.

كانت ثيابه من النوع الرخيص، لكنها كانت متناسقة الألوان، عليها سمة الوقار، وكان له أسلوبه الخاص في المشي والالتفات والجلوس والنهوض من على الكرسي، وفي قرقرة أصابعه بعضها ببعض. ينضبط في الحضور والانصراف؛ لإعطاء الدروس على خلاف بقية المعلمين، لا يدخن، ولا يلعب الورق، ولا يضيق وقته في الترهات والتوافه، ينأى بنفسه عن الغيبة والنميمة. كان متواضعاً من غير خضوع، ومترفعاً من غير تكبر، وواثقاً من نفسه، ومدركاً لحدوده، وواعياً لدوره، ورغم ذلك لم يكن ليسلم من الحساد! فكثيراً ما شككوا في إخلاصه، واتهموه بالتصنع، وغمزوه بشيء من ماضيه الذي ودعه من غير رجعة. لم يكن كل ذلك ليثنيه عن عزمه في المضي قدماً في الطريق التي ارتضاها لنفسه، فكان يخلص في تأدية رسالته في تعليم الناشئة، دون أن ينتظر كلمة شكر أو عرفان من أحد ما، وليس له دافع غير إرضاء ربه ثم ضميره.

سار بنا موكب الزمن، وتعاقبت علينا الفصول الدراسية عاماً تلو الآخر، ثم طوحت الأيام بنا وبه إلى سفر طويل وغربة بعيدة، كنت خلالها ألتقيه في الصدف والإجازات، وأتابع أخباره، ولعله كان يتابع أخباري. ثم عدت إلى سربي من جديد، فسألت عنه، قيل لي: إنه سافر طلباً للحج والعمرة، ثم عاد ليستقر في البلدة، وهو مشغول هذه الأيام كثيراً. قلت: أي شيء يشغله هذه الأيام، بعد أن علم الناشئة لأكثر من ثلاثين عاماً؟ قالوا: إنه يعلم الصبيان! قلت: أي شيء يعلم الصبيان؟ قالوا: يعلمهم كيف يكونون رجالاً!

ذهبت إلى معلمي، فالتقيته، فوجدت الشيب قد خط دروبه في لحيته، وأثقل الدهر كاهله، حتى بدا فيه شيء من الانحناء، وبدت الرقة في جلده، والهشاشة في عظمه. لكن رغم ذلك لازلت ألمح في عينيه انقاد مصباح العطاء، وتوهج سراج البذل، فما أسلم راية رسالته، التي نذر نفسه لها، حتى بعد إحالته إلى عمل إداري، فأبت همته العالية إلا أن يستمر في تعليم الصبيان فنون بناء الحياة. وقد شهدت - فيمن شهدت من بين

صبيانہ الذین علمہم - عشرة من الرجال کلہم أساتذة فی الجامعات، بتخصصات شتی. ألا إن أرادت نساؤنا أن تنجب، فلتنجب لنا مثل معلم الصبیان هذا وإلا فلا.

دائرة الوهم

رسمت الساعة الإلكترونية على شاشتها أربعة أصفار، فعلم أن الليل قد انتصف، وأن الوقت قد حان للشروع في رحلة القلم المعتادة. هياً أوراقه الصفراء ويراعه الأخضر، وجلس خلف مكتبه الخشبي الصغير، الذي وضعه بجانب النافذة؛ حيث يمكنه أن يخترق ببصره عتمة الليل، ويرى شجرة الصفصاف الباكي القابعة أمام منزله في وسط الثلوج - التي كانت تغطي وجه الأرض - فبدت له تلك الشجرة في تلك الساعة بهيئة أغصانها المعرات من أوراقها وكأنها عجوز طاعن في السن تقف متجردة تحت قبة السماء البعيدة ... تراقب البيوت المعتمدة من حولها، فترى فيها سنين عمرها الماضية، ثم تنظر إلى النافذة الوحيدة المنارة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فترى فيها الأمل المتبقي لها من الحياة. فاختارت أن تقف أمام هذه النافذة لا أمام غيرها؛ عساها تجد فيها الأنس بعد أن أوحشتها مخادع بقية الأنام.

غمس القلم بدواة روحه، ومن فيح عبيرها استلهم كلماته، فأمطر السطر بغيث وابل حملته سحبها من ماء بعيد، جلبته من بحيرة ذكرياته، تلك البحيرة التي طالما كان يرفدها من نهري عينيه. تسعة عشرة عاماً مرت، ولم تحف تلك البحيرة، رغم أن نهري دموعه قد توقفوا منذ أمد بعيد إلا أنهما تركتا خلفهما مجرىين بارزين في تضاريس وجهه. كان من قبل قد جعل من نفسه بلسماً يخفف آلام جراح الناس، فانشغل بجراح من حوله عن زيف جرحه، حتى أعياه الألم، فسقط دفعة واحدة، فإذا الذين وهبهم شفقتهم وعنايتهم بالأمس ينفضون عنه، ليجد نفسه وحيداً يكابد الأمرين: مرارة الجرح ومرارة الغدر.

مضى على ذلك الجرح عهد طويل، لكنه في هذه الليلة - عندما كان يتجول في بهو قلبه الفسيح - رأى مصادفة الحجرة المقفلة بإحكام، فوجد في نفسه الرغبة العارمة في كسر ذلك القفل الموصد، فإذا به يرى الجرح الذي كان قد خلفه أسيراً في هذه الحجرة القابعة في أعماق قلبه لا يزال حياً نضاحاً، كيوم أن تركه، فأعاد إليه في هذه الساعة الباردة حرارة الماضي، ولهب الذكريات.

أحب تلك الفتاة بصدق، وأخلص لها بوفاء، غير أنها لم تكن أبداً صادقة في حبه، ولم تكن في يوم أهلاً للوفاء، فلماذا يصرّ قلبه على أن يبقى أسيراً في دائرة الوهم؟! لماذا يستمر في حبه لها، وقد باعته بأزهد الأثمان، وتحلت عنه بأحلك الأوقات، وفضلت عليه من هو دونه، بعد أن رفعها إلى من هي دونهم؟! عندما التقاها للمرة الأولى، قالت له عيناها: إنه الملك المتوج على عرش قلبها، وإنه الفارس الذي طالما داعب أحلامها. أما هو فقد ملكت عليه جميع مشاعره وجوارحه، فرأى في حور عينيه هدوء الليل وصفاء الثلج، وفي نضارة محياها براءة الطفولة ونقاء الطوية، وفي قامتها المشوقة عزة النفس وارتفاعها، فكانت في عينيه جميلة الجميلات، مثال العفة والصدق والوفاء. فأحبها حباً لم يحبه رجل امرأة، وبذل لها ما لا يبذله رجل في سبيل امرأة، أفاض عليها بالحنان الذي لو لامس صخوراً لتفطر قلبه، ورواها بالدمع الذي لو أصاب جرذاً لربى نبتة، وأغدق عليها بالأعطيات التي لو طُلبت من ذي سعة لأعجزته. لكنها ما جازته بذلك إلا التكرار

والغدر، فما أن ضاقت عليه مخارج الدنيا، وابتلته الأيام بعسر الخفايا، وتغيرت عليه الوجوه، حتى كانت أول من استدبره، وتحلى عنه، بدلاً من الوقوف إلى جنبه لتكون يداً حنونة تعضده في محنته. لقد اختارت أن تزن ذلك الحب العظيم بمكيال الخسارة والريح الماديين، وكانت من قبل قد ابتليت بوالدة ساقطة الهممة، أعلى أمانيتها من الدنيا الفوز بدرهم أو دينار، فزينت لها متاع الدنيا وحطامها من معدن ثمين ومنزل فسيح ومركب مريح، ومازالت بها حتى ألانت عريكتها، فعرضتها بسوق النخاسة، فملكها من كانت بالأمس القريب زاهدة فيه. حمل إليه خبرها أحد الشامتين به، فأظلمت الدنيا في عينيه، وتحول قلبه إلى مستنقع مليء بالأحزان الراكدة. في لحظة واحدة خسر جميع أحلامه، فأصبح بلا أحلام، أصبح غريباً لا أنيس له بين الأنام. سقطت في لحظة واحدة جميع كلماته، وهامت روحه على غير هدى في غابة موحشة، لا يُسمع فيها غير نعيق البوم، ولا يُرى فيها غير أشباح الأوهام.

لم يكن ليصدق أن تلك الفتاة الرقيقة كورقة الورد، يمكن لها أن تُثلم جدار قلبه، وأن تتركه ليزوب كقرص شمع تحت أوار لهيب نيران متقدة، لم يكن ليصدق أنها تفعل ذلك بمن أحبها، ومن سيبقى يحبها، حتى تنتهي الحروف والكلمات، حتى تنقضي الفصول والأمسيات، وما دامت الروايات تُحكى والفوانيس تُشعل، ومادامت الأفلاك تدور في اللاحدود، ومادامت العيون تمطر الدموع، ومادامت الدموع تغسل القلوب، ومادامت القلوب تنبض بالشوق وتحيا الحياة ...

لقد أحدثت تلك الفتاة في نفسه شخاً يصعب ردمه، وها هو بعد مرور السنوات الطويلة على فقدانه من أحب يجلس في هذه الليلة الباردة إلى هذه الساعة المتأخرة؛ ليستعيد في ذكرى فراقها له بعض أحزانه. ورغم أن كلماتنا تسقط إذا لم تبلغ منزلة الصدق، وأحلامنا تنطفئ إذا لم تبلغ منزلة الحقيقة، فإنه لا زال يتشبث بهذا الحلم القديم، ويصرّ على البقاء في دائرة الوهم، وكأنه يريد أن يقول لها: تزيدين بعداً فأزيد قرباً، وتزيدين بغضاً فأزيد حباً، وتزيدين غدراً فأزيد وفاءً ...!

كأنه يريد أن يقول لنفسه: أيها الفارس المزيّف أعجزت الكلمات في الرهان، وأرهقت الحروف بالإلحاح، فلتكن ممجداً وادعاً صابراً، كما أراد الرب، يا من تجلببت الليل ستاراً، فعانقت روحك الجراحات المريرة، يا من توجعت بلا أنين، وقتلت بلا شهود، ونزفت بلا دم، لا ترفع شكواك إلا للذي إذا اشتكيت إليه أجابك، والذي إذا فزعت إليه أمنك، فابسط بين يديه جرحك لعله يبرئك. أليس هو الذي أعطاك ثم سلبك؟ فهو قادر على أن يؤنس وحشتك. فاهدي أيتها النفس المروعة، وأطبقي أيتها العين البائسة الناعسة المسهدة، فقد تملل الليل زاحفاً هارباً، يجر خلفه أذياله المتطاولة فوق الشرفات والمنازل المعتمة.

عند هذا القدر توقف عن الكتابة، ثم نظر عبرة النافذة، يريد أن يطمئن أن شجرة الصفصاف الباكي لا تزال ساهرة بالقرب منه، لكنه لم يستطع رؤية وجهها الحزين، فقد حال بينهما كثافة الثلج الهابط من السماء. تلمس قلبه، فوجده لا يزال يخفق بشدة، أراد أن يستمر بترجمة رموز تلك الخفقات، لكنه أشفق على قلمه، الذي علا أنينه تحت وطأة الكلمات، فحرره من قبضته؛ ليستريح قليلاً من رحلته.

القط المتخمة

في الساعة الثامنة مساءً من يوم الثلاثاء، حيث السماء تتصل بالأرض بفيض من الدموع الهامية، فامتلأت مصارف الماء الأرضية المفضية إلى نهر الشبريه، فسالت في شوارع المدينة سواقي وجداول يرفد بعضها بعضاً. اتصلوا عليه في مكان عمله بمكتب أرشفت الوثائق التاريخية الكائن في شارع (أونتر دن لندن) فأخبروه أن والد زميلهم عبد القادر قد توفي، وأنهم سيجتمعون في منزله؛ من أجل مواساته، والوقوف إلى جانبه في مصابه.

لبس معطفه المطري الطويل المصنوع من (التايلو) الأزرق على عجل، وحمل مظلته السوداء الصغيرة، وأقفل باب المكتب بإحكام، ثم توجه من فوره إلى محطة القطارات الكائنة في أول الشارع، فاستقل قطار الأنفاق، وجلس في المقعد المنفرد المحاذي للنافذة، ثم جال ببصره داخل العربّة فلاحظ أنها شبه فارغة، ليس فيها سوى بعض المراهقين الأتراك، يتقاذفون الشتائم، ويتصايحون كالحمقى، فامتلأت العربّة الحمراء المستطيلة بضجيجهم. أشاح بوجهه عنهم ونظر عبر النافذة المصمتة المصنوعة من الزجاج ذي الطبقات المتعددة، والذي يصعب كسره حتى بالمطرقة، فلم يكن يستطيع رؤية شيء سوى ظلام النفق الممتد على جانبي سكة القطار. ثبت كرتي عينيه العسليتين على ذلك الشبح الأسود الذي يبتلع القطار كما يبتلع حوت عظيم سمكة صغيرة، وترك لأفكاره ومشاعره حرية الانسياب فوق تربة ساحة شعوره الرخوة، فكانت صور الأحران القديمة المدفونة في ذاكرته تتدفق أمامه على هيئة أطياف ترتدي أقنعة لأولئك الذين عرفهم في حياته ثم فرق الموت بينه وبينهم. لم يعد يصل ضجيج أولئك المراهقين إلى مسامعه، فليس هناك رهبة أعظم من رهبة الموت، ولا جلالة لشيء مثل جلالته ومهابته، حتى هذه الظلمة الحالكة التي تشعرنا بالوحشة والهلعة لا تبدو شيئاً أمام قلق الغناء وآلام التلاشي، حيث يتوقف نبض الحياة، وترفع الآمال، وتنتهي الأحلام، فيصبح هذا الكائن البشري العامر بالحياة في غمضة عين كشهاب لمع لبرهة في سقف السماء ثم انطفأ، فتختزل حياته بأكملها بعبارة جوفاء صغيرة (كان فلان)، ثم تطوى صفحته، وتفتح صفحة جديدة! ترى ما هو حالك الآن يا عبد القادر؟ إن شقاء الغربة وكآبة الوحدة ستجعل خبر وفاة والدك ينزل على مسامعك نزول الصاعقة، ولا بد أن قلبك الآن تفيض به الأحزان، ومآقيك تتزاحم فيها الدموع. أيها المسكين كيف ستمر عليك هذه الليلة؟ فمنذ أكثر من عامين لم تستطع رؤية عائلتك، تبا للغربة، ما أفساها وأبشعها! أي مال ستجنيه فيها يمكن أن يعوضك عن رؤية والدك للمرة الأخيرة؟! أمل أن بقية زملائنا الآن قد التفوا حولك يشاركونك مصابك ويحملون عنك بعض أوجاعك، أمل أن أيديهم ستربت بأخوة وحنان على كتفيك، فلا بد أنهم الآن يحتضنونك بصدورهم ويواسونك بكلماتهم ومواعظهم. لم يبق سوى دقائق معدودة وسأكون معكم، لأنضم إلى جوقكم الحزينة، فما أعدرك أيها الموت! هكذا وبدون أي إنذار تأتي كزائر ثقيل الظل لا يرضيه غير أعلى وأثمن ما يملك المضيف، طريقتك في استرداد حقوقك كمرابٍ شديد

اللثم يأخذ الدين أضعافاً، فإن كان عقد الحياة - الذي لم نوقع عليه - فيه إقرار بالموافقة على شرط الموت، فإن من الخير لنا ألا نشترك بهذه التجارة الخاسرة، لكن من يستطيع أن يفعل ذلك؟! إنها صفقة مفروضة علينا، لا مفر لنا منها، فكما أننا لم نكن مخيرين في ارتياد قافلة الحياة، فكذلك لن يكون لدينا الخيار في مغادرتها. إن الذي أوقد الشعلة سوف يطفئها، وإن الذي وهب العطية سوف يسلبها. وهناك خلف العتمة الدامسة وعود بغرف مضيئة، ومن يرد الوصول إلى التور لابد له من عبور التفق الطويل المظلم، لا بد له من المغامرة بفعل ذلك؛ ليراهن بما يملك على ما لا يملك. لفعل ذلك فإننا نحتاج إلى شجاعة تصل حد التهور، وإلى تعقل يصل حد الجنون. والليلة الأولى في القبر سوف تفسر لنا الأحجية الصعبة، حيث لا ألغاز هناك بعدها، فإما رقاد بسلام، حيث يعود الفرع إلى الأصل ويتحد الجزء بالكل، فتكتمل الدورة، ويفوز المقامر، ويتوه المراهن. وإما استيقاظ في ليلة مهولة رهيبة على أسئلة حائرة، تحتاج إلى أجوبة، وكل جواب مرهون بثمان لا يعدله شيء في الدنيا. معادلة فرضت عليك شئت أم أبيت، فاختر لنفسك أحد وجهي العملة؛ لتراهن عليه، والخسارة أو الفوز احتمالاتهما متساوية، ويكذب من يقول لك غير ذلك؛ لأنه يخالف أبسط قواعد عمليات الاحتمالات المفترضة. ما أصعب حالك يا عبد القادر! كنت وحدك الغريب فلحق بك والدك، لكنه سلك الطريق ذات الاتجاه الواحد.

توقف القطار في المحطة الأخيرة، فانطلق إنذار فتح أبواب العربات، تسربت جموع المسافرين منها كما يتسرب الماء من شقوق الصخر، فاندسل بين تلك الأرتال، ومضى بخطوات متسارعة في الدرب المفضية إلى بيت زميله، وقبل طرق الباب هياً نفسه لملاقة أكوام من الهموم، فتجهم وجهه، وانخفض صوته، وانحنى ظهره. فتح له عبد القادر الباب فوجده على الصورة التي رسمها له، أخذه من فوره في حضنه، وعانقه بقوة، وبعد أن عزاه بكلمات واجمات سارا معاً في الممر الضيق الذي يفصل بين الحجرتين الصغيرتين، فكان يسمع في هذه الأثناء جلبة مرتفعة تنبعث من الحجرة المعدة لاستقبال الضيوف، وعندما وقف في بابها لاحظ أن معظم زملائه قد حضروا، وتكدسوا في تلك الغرفة المربعة، ذات السقف المنخفضة، والجدران الخشنة. للوهلة الأولى تصور أن تلك الجلبة صادرة عن أذكار أو مواعظ يرددوها الحاضرون، لكنه ما أن وقف بهم وأرهف السمع حتى وخر أصداغه قهقهات معربة تنطلق من بين ذلك الجمع المستهتر، ظن في بادئ الأمر أنه تعرض لمقلب ثقيل الظل من زملائه، لكن صاحب البيت لا زال مقطب الحاجبين، شاحب الشفتين. ارتاب في حقيقة الخبر، وأعاد السؤال همساً على بعض الموجودين بشأن خبر الوفاة، فأكدوا له الأمر. التفت من جديد إلى زميله عبد القادر فوجده قد جلس عند عتبة تلك الحجرة، وانشغل بإعداد الشاي، وسكبه في الكؤوس، وتوزيعها، رغم علامات الحزن وفاجعة افتقاد الأب التي تغمس وجهه بالكآبة. ولأنه لم يفهم ما يجري جلس في زاوية صغيرة بجانب عبد القادر، وأخذ يراقب بصمت بقية الحاضرين.

لا أحد يذكر شيئاً عن الموت، أو يحاول أن يؤانس المشكول بفقيده، سوى أنه بين البرهة والأخرة يتنبه بعضهم بأنه في مجلس عزاء، فيسأل عن أشياء عامة تخص المتوفى، مثل: كم كان عمره؟ ما هو عمله؟ هل ترك مالاً أو عقاراً؟ وهكذا ... في حين كانوا منهمكين معظم الوقت في الحديث عن العمل والتجارة وشراء

الأحذية والقمصان بأسعار رخيصة ... حيث قال أحدهم: إنه اشترى سبع بدل رسمية من النوع الفاخر، ثم ابتسم بزهو شديد، وأكد حصوله عليها بأسعار مخفضة، وذلك لبراعته في تصيد العروض التي تقدمها متاجر برلين في هذه الفترة من السنة.

فأراد شخص آخر أن ينازعه هذا النصر العظيم، فأكد للجميع أنه كذلك استطاع أن يحصل على عرض خاص من أحد المحلات، فاشترى اثني عشر قميصاً دفعة واحدة - وذلك بعدد أشهر السنة - من أفخر (ماركات) الثياب، ومن أجود أنواع الأقمشة، حتى أنه أشار من غير تصريح بأنه ابتاع من المحلل له ولزوجه وأولاده ما قيمته عدة آلاف (يورو)!

أثار بذلك قريحة بقية الموجودين، فأخذ كل واحد منهم يستعرض قدرته على تتبع تنزيلات المحلات التجارية. وعندما أحس بعض الموجودين بشيء من الحسد لعدم تمكنه من الظفر ببعض هذه العروض كالآخرين استلم دفعة الحديث، وانعطف به في اتجاه آخر؛ لكي يسحب البساط من تحت أقدام المنتصرين في لعبة عروض الأحذية والستراويل، فأطلق طرفة حول ما يجري في مجالس العزاء عن شخص أبله لا يعرف كيف يجب من يقول له: عظم الله أجرك! فيجيب: الله يعظمك!

وهكذا بدأت المنافسة في رمي الطرف وذكرها والتندر بها، فتنتطلق بعد كل واحدة منها القهقهات والضحكات الماجنة تملأ المساحة الصغيرة المتبقية في الحجرة، وفي حين كان يمسح بعضهم دموعه من شدة الضحك، كان بعضهم الآخر يشير إلى عبد القادر بأن يسكب له الشاي من جديد! فكان يسارع إلى فعل ذلك وهو يتكلف بشكل مأساوي في محارات المقهقهين، فيشد شفثيه بصعوبة بالغة؛ كي يرسم ابتسامة باردة مصطنعة، في حين كانت تتدافع في مآقيه الدموع، التي يحاول أسرها خلف سد واهن من حجارة المجاملة الثقيلة لضيوف بلداء، ماتت قلوبهم، وتجمدت أحاسيسهم، فأصبحوا "كالذباب الذي يطوف فوق موتاه وهو غير مبال بهم، وكأن هؤلاء المحطمين لا يعنونه شيء، أو أنهم لم يكونوا قبل قليل جزءاً من عالمه الحي، ويربطه بهم ألف وشاج" ٣.

لماذا نفعل نحن البشر بعض الأشياء بصورة خاطئة وبطريقة مقلوبة؟ إذا كنا نريد أن نضحك ونلعب في مجلس الموت ونعبث بقدسيته! فلماذا إذاً لا نبكي ونحزن وننتحب في مجلس الفرح؟ ولماذا يتوجب على الكليم المفجوع أن يجامل ويساير على حساب أحزانه؟ فهل يقبل أحد الناس أن يحول ضيوفه مناسبة زواجه مثلاً إلى مأتم ومجلس حزن؟ فلماذا يقبل أن يحول السفهاء مجلس يتمه وعزائه إلى مناسبة فرح وضحك وتندر؟ هل جنّ الناس أم تحجرت مشاعرهم حتى أصبحت لا تثار في أشد المواقف إيلاماً؟ فهل يوجد مصيبة أعظم من فاجعة الموت؟ إن الإنسان الذي يفقد القدرة على الإحساس بأوجاع الآخرين وآلامهم يفقد صفته الإنسانية، وتهوي به نفسه إلى مدارك دون منزلة العوام، وأشبه ما يكون حينها بقطعة خشب مسندة، أو حجرٍ مرمي في قعر بئرٍ سحيقة خاوية.

٣ ورد هذا المعنى في كتاب الأستاذ زكريا إبراهيم، مشكلة الموت.

أدار أحداقه في ذلك الجمع المشغول بغفلته مرة تلو الأخرى، ثم نظر إلى المغلوب على أمره المشغول بتوزيع أكواب الشاي، فرأى أنه ليس من الحكمة مخالفة الجماعة، فلا بد من المشاركة فيما يحدث، وبخاصة أن أحد الحضور استفهم منه عن سبب صمته، وعدم خوضه فيما يخضون، فانتصب في مكانه في مشهد درامي، وطلب من الجميع بصوت مرتفع حازم أن يستمعوا إلى طرفته التي وقف عليها شخصياً في أحد مجالس العزاء. توجهت إليه تلك الرؤوس الفارغة، واستدارت معها الكروش المتدلية، وتحركت تحتها الأوركة المتشحمة، حيث كانت تلك الكائنات كقطط متخمة، اكتنزت شحومها من قمائم أحياء المدن، بعد أن كانت تعيش في كفور مقفرة. تشوقت الأسماع إلى طرفة ترفد المجلس بمزيد من الغفلة والحمق، فبدأ طرفته بقوله:

إنّ الفقراء الذين لم يكونوا يجدون قوت يومهم يشترون الآن سبعة بدل رسمية! يبدو أنهم نسوا طعم الجوع تماماً، كان يمكنهم أن يرتدوا بدلاً رسمية ذات (المراكات) الفاخرة، والملابس التاعمة طيلة أيام الأسبوع الستة، وفي اليوم السابع - يوم العطلة - لن يحتاجوا لفعل ذلك، كان يمكنهم بثمن البدلة السابعة أن يشتروا رغيف خبز لفقر جائع! وما أقل حاجتنا للبدل الرسمية ولأصحابها، وما أكثر معدميننا وأفواهنا الجائعة! عندما قال هذا الكلام تبسم بعض العقلاء في ذلك المجلس، وعلموا أن الوقت قد حان ليصمت الجهلاء وليكف الرّعناء عن ترهاتهم، وليوضع حد لجفاف الضمائر وموت القلوب، ثم أردف حديثه ليتم طرفته فقال:

منذ سنوات طوال مات لي قريب عزيز على قلبي كثيراً، فاجتمع بعض أصحابي في منزلي كما اجتمعتم اليوم في منزل زميلنا عبد القادر، جاؤوا ليواسوني في مصابي، ففعل أحدهم في ذلك المجلس كما فعل بعضكم في هذا المجلس، في الوقت الذي يجب أن يصمت فيه الناس تكلم، وفي الوقت الذي ينبغي أن يبكي فيه الناس تبسم، وفي الوقت الذي يجب فيه على الناس ترك الزينة تزين، ففعلت معه آنذاك كما فعل معكم اليوم عبد القادر، تبسم فجاريته، وتضاحك فضاحكته، كان ضيفي فقمتم معه بواجب الضيافة، وكنت مغفلاً لمجاراته في حمقه! والعبرة أن ذلك الشخص عندما دخل بيتي كان صاحبي، لكنه عندما وضع أول قدم خارج بيتي كان كذلك يخرج من قلبي! ومنذ ذلك الحين لم يعد ذلك الشخص صاحبي، ولم يعد أمره يعنيني في شيء. وإنني أخشى ما أخشاه أننا بعد شرب الشاي وخروجنا من بيت مضيفنا، سوف نخرج كذلك من قلبه! إذا لم تكن تستطع الإحساس بأوجاع الآخرين ولم تسعفك عيونك بالتباكي فخير لك أن تصمت، فذلك أقل المروءة، وأدنى درجات الإنسانية! إن ما تفعله بعض الأحجار البشرية في مشهد الموت المريع من عبث لدليل ظاهر على ظلمة قلوبها وغفلة عقولها!

وبعد انتهائه من ذكر هذه الطرفة كانت القطط المتخمة قد توقفت تماماً عن المواء، ولزمت صمتاً مبهماً، لم يقطعه سوى صوت تنشجات وعبرات محتنقة، رافقت انهمار الدموع الحارة من عيني ذلك الحزين المشغول بأكواب الشاي، والذي يجلس عند عتبة الحجرة.

ورقة الخريف

ساقته الأقدار إلى سفر طويل، حتى انتهى به المطاف وحيداً في شقة صغيرة على أطراف المدينة، كان الخريف قد حطّ رحاله، فتناثرت أوراق الأشجار الحمراء المصفرة على الطرقات ذات الأضواء الخافتة، تلعب بها الريح دون خجل أو استئذان، فتحرّكت في نفسه لواعج الأسى والحنين على فراق الأهل والأحباب، شعر بكآبة الحياة ورتابتها تملأ عليه المكان، وتورث قلبه الأحزان، وتضاعفت شقوته عندما تذكر أنه وحيد بلا رفيق يؤانس غربته، أراد أن يكسر قيد هذا الشعور، ويهرب من ملاحقة أشباح الوحدة له، فقرر أن يغادر حجرته؛ ليذهب إلى إحدى التلال المشرفة على المدينة، فارتدى ثيابه على عجل، وهم بالخروج، فإذا بالباب يقرع، تعجب من ذلك؛ فهو لا ينتظر زيارة من أحد، والوقت لا يزال مبكراً. وضع يديه على المقبض، وأداره بهدوء، ثم فتح الباب، فإذا به أمام فتاة شقراء، ممشوقة القوام، عالية الخدين، حمراء الوجنتين، تترقق في عينيه زرقة السماء، وتتوهج على شفيتها أنوار السعادة، فترى فيها نضارة الحياة وبهاءها. حيّته على استحياء صباح الخير، وعرفته نفسها: (داريا) جارتك الجديدة في الشقة المقابلة لشقتك، أرجو أن تتكرم علي بالمساعدة في رفع قطعة ثقيلة من الأثاث.

لبي طلبها مسرعاً، ثم عاد إلى شقته فاقداً الرغبة في الخروج منها؛ إذ تحوّلت كآبته السابقة إلى أنغام راقصة. شرد طويلاً مع أحلام يقظته، حاول أن يستعيد صور ابتسامتها، وترديد كلماتها. أخيراً وجد الفتاة التي تستطيع أن تملأ عليه الحياة سعادة وبهجة، ومنذ ذلك الحين بدأ يضبط مغادرته للشقة مع مغادرتها؛ لكي يتحين الفرصة لمقابلتها، ولكم مُني بخيبات الأمل عندما كان يجد أن الذي خرج من الشقة شريكها في السكن، فيهمّ بالعودة لشقته مرة ثانية، لولا أن الحياء يمنعه من فعل ذلك. لم تكن صورة تلك الفتاة تغادر مخيلته، ولم يكن يرغب في التفكير بشيء سواها.. وهكذا حتى مرت أسابيع على مجاورتها له في السكن، ولم تزد علاقته بها عن مجرد إلقاء التحية من بعيد، حتى كان ذلك اليوم، الذي التقيا فيه مصادفةً بالحافلة، فبادرته بالتحية هذه المرة، ثم جلست بجانبه، تحدّثا بأمر كثيرة تتعلق بالدراسة، ولم يكن يجرؤ على أن يظهر لها إعجابه، ولكنها بحسب الأنثى استطاعت أن تفهم ذلك، فدعته لزيارتها في شقتها لتناول الشاي مساءً. تردد كثيراً قبل قبول الدعوة، وحاول الاعتذار، لكنها ألحت عليه بالطلب، فوافق تحت إصرارها. قالت له: إنها ستخبر شريكها بالسكن بأنه سوف يزورهم اليوم مساءً. جلس في شقته حائراً متردداً في الذهاب إليها، ولم يزل على حيرته حتى جاء الموعد المتفق عليه، فحسم أمره وطرق الباب عليها، ففتحت له الباب، فإذا بها قد تجملت بأحسن ما تكون المرأة، فقال في نفسه هذا هو لباس دعوة الشاي، فكيف إذاً يكون لباس دعوة العشاء؟

أدخلته غرفتها، فجلس على الأريكة، كانت لطيفة جداً، رحبت به بحفاوة، ثم أحضرت الشاي، فعاجلها بالسؤال عن شريكها في السكن، قالت له: إنها سوف تبيت الليلة عند صاحب لها! فارتعشت أطرافه

حال سماع جوابها، وأخذ قلبه يخفق بقوة، فهو يحلم بلقاء هذه الفتاة منذ أسابيع، ويتمنى أن يستطيع مجرد رؤيتها من بعيد، والآن يجلسان وحيدَين، وهي بكامل فتنها وأنوثتها! فهم المقصود من هذه الدعوة، فأخذت نفسه تساومه بين الخروج من عندها أو البقاء، وأخذ الصراع يحتد بداخله بين ضميره وعواطفه. وبينما كانت تحدّثه بجسدها قبل كلماتها، بلغة الأنوثة الملتهبة والدلال الفاضح، كان صوت الواعظ الأخلاقي بداخله يدوي كالرعد الهادر. وبينما هو على هذه الحال، جامداً مكانه، حائراً لا يعرف ما القرار الذي يجب أن يتخذه، فإذا بها وقد أغلقت باب الحجرة بإحكام، وأنزلت الستائر، وأطفأت المصباح، وأشعلت الشمع، وشعلت ملف الموسيقى الرومانسية الهادئة في الجهاز المحمول، ثم جلست على السرير، وفرشت شعرها الأشقر الذهبي على كتفها الأيسر، وأخذت ترمقه بعينيها الزرقاوين، وهي ترسم على شفاهها الحمراء ابتسامة وردية، ثم حركت قوامها الرشيق إلى الخلف، واستندت بظهرها على الجدار، ثم سحبت شالها الأخضر، الذي كان يغطي عنقها الجميل، ووضعتَه إلى جانبها على السرير، لم يكن الأمر بالنسبة له هيناً، فبدت عليه علامات الارتباك، والخجل، فعرفت بفراستها وشدة ملاحظتها ما به من اضطراب، فأخذت تحدّثه عن أسرتها، وعن أمور عامة؛ لتخرجه من حالة الارتباك التي كان فيها، فتظاهر بمجاراتها في الكلام، وبعد أن أحست منه بعض المؤانسة، طلبت منه أن يجلس بجانبها على السرير، لكنه حاول التهرب من طلبها، فسألها عن مسائل تخص دراستها في علم النفس، فبدأ سؤاله في حينها ثقیل الظل عليها، لكنها مع ذلك أجابته على عجل، ولما رأت عدم استجابته لطلبها، نهضت، واقتربت منه، وأمسكت يده بلطف شديد، فشعر بنعومة ملمس أصابعها، فزاد خوفه من الله بتحرك نوازع نفسه إليها، فأسعفته الفطنة وتظاهر بأن غصة قد علقت في حلقه، وأخذ يسعل بشدة، فأشار إليها أن تحضر له الماء بسرعة، فاستجابت لطلبه من فورها، وحين ذهبت لجلب الماء، خرج مسرعاً من شقتها، لا يلوي على شيء. ومنذ تلك الليلة لم تعد تلتفت إليه أو تعبره أي اهتمام، فمضت إلى حالها، ومضى إلى حاله.

عودة أحيقار

أنا صالح العبد من بلدة هجين الواقعة على الحدود السورية العراقية، حدثت معي قصة غريبة جداً، أخبرت بها الكثير ممن أعرف، لكنهم للأسف لم يصدقوني، بل منهم من لمزني بالكذب، ومنهم من أشفق عليّ؛ لأنه اعتقد أن خللاً ما أصاب عقلي. ولما لم أجد من يصدقني ممن حولي، وثقل عليّ أمر ما كان قد حدث معي، عزمت على أن أقوم بكتابة قصتي، وأنشرها في مواقع شبكة "الانترنت"؛ عسى أن يقرأها أحد ما في يوم ما ويصدقني، أو لعله صادف تجربة مثل تجربتي. وقد ألزمت نفسي وأنا أكتب هذه الكلمات ألا أكتب إلا الصدق، وأن أتحرى ألا أزيد أو أنقص مما جرى شيئاً، وإليكم الخبر.

بعد احتلال العراق بثلاث سنوات تقريباً بدأت الأمور تهدأ قليلاً، فكان أن سُمح بتبادل النشاط التجاري بين العراق وسوريا، بعد أن كانت الطريق البرية بين البلدين مقطوعة لسنوات طويلة. وحيث كانت عائلتي تسكن - كما ذكرت - في بلدة هجين الواقعة على ضفة نهر الفرات بالقرب من الحدود الصحراوية بين البلدين رأيت أن أستغل امتلاك عائلتي لسيارة شحن كبيرة بأن أقوم بنقل البضائع من العراق وإليها؛ فقد كان الطلب على مختلف الاحتياجات داخل العراق ملحاً جداً؛ بسبب ما كان من أمر الاحتلال. وبالفعل بدأت أنا وأخي عبد اللطيف - الذي يصغرنى بسنتين - في نقل المواشي من منطقة الجزيرة الشامية إلى مدينة الموصل عبر الطريق الصحراوية الطويلة. وعلى الرغم من أن هذا العمل كان فيه مخاطر شديدة، كأن نتعرض لنيران القوات الأمريكية، أو الأسر من قبل الميليشيات الطائفية، فإننا قمنا به معتمدين على الله أولاً، ثم على معرفتنا بالمنطقة بشكل جيد، ولوجود أقارب لنا في الجانب العراقي كانوا يسهلون لنا أعمالنا عند بلوغ مدينة الموصل. لم نكن وحدنا في هذا الأمر، بل الكثير من أبناء المناطق الحدودية دفعتهم الرغبة في تحقيق المكاسب المالية ليحذوا حذونا.

وفي إحدى هذه السفريات أصابت أخي عبد اللطيف حمى شديدة، فلم يكن بمقدوره أن يرافقني، وكنت قد أبرمت اتفاقاً صارماً مع أحد تجار الماشية بأن ننقل له مئة رأس من الغنم في وقت محدد، فلم يكن بإمكانني انتظار عبد اللطيف حتى يشفى من مرضه، حزمت أمري بأن أذهب بمفردتي، رغم ما في ذلك من مشقة بالغة؛ لقيادة الشاحنة لمسافات طويلة بمفردتي، لكنني كنت أثق بقدراتي الجسدية والنفسية؛ فقد نشئت منذ نعومة أظفاري على الرجولة والخشونة، فتوكلت على الله، وبعد غروب الشمس قدت شاحنتي المحملة بالأغنام، وسلكت الطريق الصحراوية المعبدة قاصداً الموصل. كان كل شيء على ما يرام، سرت ساعات ثم ساعات، لا يؤانسني في تلك القفار سوى بعض الشاحنات التي تنقل البضائع مثلي، فكنت أصدفها على الطريق بين الفينة والأخرى، فتمضي في سبيلها وأمضي في سبيلي. حتى إذا ما بعدت عن هجين مسافة تزيد على مئتي ميل، وأوشك الليل على الانتصاف، سمعت صوت انفجار خفيف، فاهتزت الشاحنة،

واختلت حركتها، فعلمت أن أحد الإطارات الخلفية قد أصابه أذى ما، فتسرّب منها الهواء المحجوز، فأمسكت المقود بإحكام، وبدأت أخفف السرعة شيئاً فشيئاً، حتى توقفت الشاحنة تماماً. نزلت من قمرة القيادة، كانت الظلمة حالكة، والسكون رهيب، فمددت يدي إلى المكان الذي احتفظ فيه بالمصباح الآلي عادة، فلم أجده، فتذكرت بالحال أنني نسيتته على المنضدة في غرفة الجلوس، حيث كنت أقوم بشحنه بالطاقة. أنرت الأضواء الخلفية للشاحنة، ثم بدأت بتفحص العجلات الخلفية، فوجدت أن ضرراً كبيراً قد لحق بإحداها، ولا بد من استبدالها. كان معي عجلة بديلة في المكان المعد للاحتياجات، ولدي الأدوات اللازمة لفعل ذلك، ولا تنقصني الخبرة، لكن كانت لدي مشكلة في الإنارة، لم تكن الأضواء الخلفية تسمح لي بأن أرى جيداً أسفل الشاحنة وعلى الجانب الداخلي للعجلة؛ لوضع الرافع وغيره من الأدوات. حاولت أن أحتال على هذه المشكلة فأعجزتني الحيل، ولم يبق لدي خيار سوى أن أنتظر بزوغ الفجر، قربت ساعتى من أضواء الشاحنة فرأيت عقرب الساعة يقارب الواحدة إلا ربع بعد منتصف الليل، قلت في نفسي: الخيرة في ما اختاره الله، فأنا بكل الأحوال مرهق جداً وأشعر بالنعاس. صعدت إلى قمرة القيادة، ثم قدت الشاحنة بهدوء شديد إلى جانب الطريق الأيسر، وتوغلت بها حوالي عشرين متراً في الرمال، ثم أوقفتها قاصداً إبعادها عن درب الشاحنات التي تمر بسرعة كبيرة؛ فقد لا تنتبه لشاحنتي المتوقفة ويحدث اصطدام ما. عندما أطفأت المحرك والأنوار الخارجية شعرت برهبة السكون من حولي، فأخرجت رأسي من النافذة، ونظرت، فلم أستطع الرؤية لمسافة تبعد عني كثيراً؛ إذ على الرغم من أنها ليلية صيفية فإنها لم تكن من الليالي القمرية. انتابتني بعض الهواجس لوحشة المكان، لكن النعاس كان يحيط بأثقاله على جفني، فأغلقت القمرة بإحكام، واستسلمت لنوم عميق. لم انتبه من نومي إلا على صوت اضطراب شديد أصاب الماشية في الشاحنة، تلفت حولي، فلم أر شيئاً، فاعتقدت بأن أحد الوحوش البرية قد اقترب من الشاحنة، فأثار دعر الماشية. تحركت بسرعة، ورفعت مقعد القيادة، وأخرجت رشاشي الآلي، ثم أشعلت جميع أنوار الشاحنة. نزلت من قمرة القيادة بجذر، واتجهت إلى خلف الشاحنة، فلم أر شيئاً. درت حولها كذلك لم ألاحظ شيئاً، وفي ذلك الوقت توقفت الأغنام عن الاضطراب، فتأكدت بأن أحد الوحوش كان قد اقترب من الشاحنة، ولما رأى الأنوار هرب، لذلك هدأت المواشي.

عدت من جديد إلى قمرة القيادة، وأبقيت بعض الأنوار مضاءة؛ حتى تصرف الحيوانات البرية عن الاقتراب مجدداً. حاولت أن أخلد للنوم مرة أخرى، لكنني لم أستطع، في الحقيقة كان بعض الخوف قد تسرب إلى نفسي من أن تفاجئني بعض هذه الوحوش وأنا نائم. حاولت أن أقطع الليل بأن أدندن بأغنية شعبية أحفظها، لكن الأغنام عادت للاضطراب، وهذه المرة كان دعرها أكبر، فأصابني بعض الخوف، وقلت في نفسي: سوف أردي تلك الحيوانات صرعى بهذا الرشاش، ولن تفلت مني هذه المرة.

نزلت مسرعاً شاهراً رشاشي الآلي، جريت بسرعة، التفت يميناً ويساراً، لم أر شيئاً، لكن الأغنام لا تزال مضطربة، وأخذ ثغاؤها يرتفع. عندما كنت بجانب مؤخرة الشاحنة أحسست بأن شيئاً ما تحرك عند مقدمتها، التفت بسرعة، وبدأت أتحرك إلى الأمام واضعاً سبابتي على زناد الرشاش متهيئاً لإطلاق النار.

عندما وصلت إلى منتصف الشاحنة لاحظت أنواراً غير أنوار الشاحنة تمتد تحتها من الطرف الآخر، ازداد خوفي، وظننت أنني وقعت في أيدي قطاع الطرق أو ميليشيات الطوائف، فلا بد أن شخصاً ما يحمل مصباحاً آلياً يكمن لي في الطرف الآخر، صرخت به بصوت مرتفع: من هناك؟ ... من هناك؟ ... لم يجبني أحد ... أعدت السؤال، وحذرت بأني مسلح جيداً، وإذا لم يُجب سأطلق النيران عليه ... أيضاً لم يجبني أحد. لكنني لاحظت أن النور الذي يمتد تحت الشاحنة بدأ يتحرك عندما تحركت باتجاه مقدمتها، كنت أريد أن أتأكد من هوية هذا الضوء، أمسكت الرشاش بقوة، وقلت في نفسي: إذا كان لا بد أن أموت فلتكن ميتة مشرفة، "فمن مات دون ماله فهو شهيد". تحركت ببطء، وكانت قدمي ترتعشان قليلاً، وضربات صدري تخفق بقوة. غامرت بالتقدم أكثر، صرت على الطرف الآخر، لكن صاحب الضوء انسحب إلى خلف الشاحنة، فازداد زعر الأغنام، فدرت إلى الطرف الآخر بسرعة، وفتحت النار من رشاشي باتجاه الضوء، لكن حامل الضوء عندما فاجأته بنيران الرشاش أخذ يعدو بسرعة مذهلة متوغلاً باتجاه القفار. وبحركة لا شعورية وجدني أجري خلفه شاهراً رشاشي إليه، وأنا أصرخ به: توقف ... توقف ... وإلا أرديتك قتيلاً. لم أكن أدرك ما أفعل؛ لقد كنت في حالة خوف وذعر، لم أكن أستطيع أن أميز هوية الشخص الذي يحمل المصباح، فلقد استطاع أن يبتعد عني لأكثر من خمسين متراً، وتوغل إلى قلب منطقة التلال الرملية. لم أجرؤ على أن ألحق به أكثر من ذلك، فتوقفت عن العدو في أثره، لكن الرجل توقف كذلك عندما توقفت. دار في خلدي حينها أن هذا الشخص ينصب لي كميناً مع رفقة يتخفون بالقرب من تلك التلال، أخذت أتلفت حولي في زعر شديد، وأتقهقر بخطى حذرة، فإذا بصاحب الضوء يتقدم نحوي ببطء! كلما تراجعت خطوة نحو الخلف تقدم إليّ بمثلها، فخشيت أن يكون هذا الشخص يحاول الاقتراب مني؛ ليصيب مني مقتللاً، فلا بد أنه مسلح كذلك، لكنني لا أحمل مصباحاً معي، فكان هذا الشخص من أمني والسيارة المضادة من خلفي، فتنبعت إلى أنه يحاول أن يجعلني أقرب أكثر من ضوء العربة؛ حتى يستطيع أن يبصرني أكثر، فيطلق عليّ النار، فتوقفت عن التراجع؛ حتى أفوت عليه فرصة رؤيتي بأضواء الشاحنة، وجثيت على الرمال بوضعية الاستعداد لإطلاق النار، لكن حامل الضوء استمر في التقدم ناحيتي ببطء شديد، كنت أراقبه بعيون تدور على محاورها، ومن شدة الخوف بدأت يداي ترتعشان، اقترب مني بحدود خمسين متراً، ورغم ذلك لم أستطع أن أتبين ملامح حامل الضوء، كل ما أراه هو وهج شديد الأنوار وسط ظلام دامس. ظننت أنه سيتوقف عند هذا القدر، لكنه تابع مسيره إليّ ... اقترب أكثر حتى صارت المسافة بيني وبينه حوالي ثلاثين متراً. لم يكن يدور في خلدي حينها سوى أنه يحاول رسدي؛ ليطلق النار علي. لم يتوقف، بل ظل يتقدم ببطء ... بدأت ألمح هيئته، يبدو لي أنه يرتدي ثياباً بيضاء، صرخت به أن توقف في مكانك، وإلا أطلقت النار عليك، لكنه لم يأبه بكلامي، بل استمر في التقدم ... حذرته من جديد، لكنه لم يستجب. لم أكن أريد قتله، لكنني بحركة لا إرادية وبسبب الحالة التي كنت عليها ضغطت على الزناد، فخرجت عدة طلقات باتجاه هذا الشخص. لقد رأيت لهيب الطلقات يخترق حامل الضوء، لكنه لم يتأثر بها، بل استمر في تقدمه ... أصابني الرعب من هذا المنظر، كيف لم تؤثر به الطلقات؟! فبدأت الهواجس تنصب على رأسي

كأنها شلال، ما حقيقة هذا الشيء المضاء الذي أمامي؟ صار ذلك الضوء على بعد خمسة عشر متراً مني، فهالني ما رأيته، لقد كان شخصاً يرتدي ثياباً بيضاء، ولا يحمل مصباحاً، بل النور ينبعث منه، والمصيبة أنه لم يكن يمشي على الرمال مشياً، بل كان يرتفع عنها بحدود نصف ذراع! لم أعد أتمالك نفسي، أردت الهرب، لكن لم تعد قدماي تحملاني، لم يبق عضو في جسدي إلا كان يرتجف، كأنما أصابني هزة أرضية، أردت أن أقرأ المعوذتين، لكن انعقد لساني، فلم أكن أعني ما أتلفظ به. اقترب مني هذا الشيء أكثر، فأبصرت هيئته، كأنه رجل مسن، له لحية بيضاء، فلم يكن عندي شك بأنني أمام شبح جنّي أو عفريت. تعوذت بالله من الشيطان الرجيم، لكنه لم يختف، أصابني حالة شبه هستيرية، فأخذت أصرخ به: لا تقترب مني ... لا تقترب مني ... وأنا ضاغط على الزناد، فكانت صرخاتي كزئير الوحش، وأزيز الرصاص، تشق السمع، لم أرفع يدي عن الزناد حتى أفرغت جميع الطلقات، لكن الشبح لم يتأثر بها سوى أنه وقف مكانه وكفّ عن التقدم نحوي. كانت المسافة بيني وبينه حينها لا تتعدى العشرة أمتار، شعرت وكأن أقدامي تمسرت في الأرض، فلم أتحرك من مكاني، بل بقيت في وضعية الجاثي على ركبتيه. كان لذلك الشبح - كما قلت - هيئة الرجل المسن، لم تكن هيئته قبيحة أو مخيفة، بل كان مصدر رعي هو وجوده مجد ذاته، وتفرد به في هذه القفار. كانت عيوني مثبتة عليه، فإذا بذلك العجوز الشبح يجلس على الرمل، ثم أشار إليّ بيده أن اقترب، لم أتحرك من مكاني قيد أنملة، بل أخذت أتعوذ منه، لكنه كرر إشارته من جديد بأن أدنو منه، فلم أستجب له، وصرخت به: ماذا تريد مني أيها العفريت؟ إنني أحفظ كلمات مقدسة من القرآن إذا قلتها فسوف تحترق من فورك. أردت بذلك صرفه عني، لكن ذلك الشبح فاجأني بقوله: إنني لست عفريتاً! نعم، قال ذلك بلغة عربية فصيحة، وكان صدى كلماته يتردد في ظلمة القفار، فصرخت به: إذا لم تكن عفريتاً فماذا تكون؟! وأنا في حالة ذهول لما يحدث أمامي من أمر يصعب تصديقه في عالم الواقع، غير أن إيماني بحقيقة وجود عالم الجن جعلني لا أفقد عقلي كلياً. أجبني الشبح من جديد: إنني إنسي مثلك، فلا تخف، أنا لا أريد أن أسبب لك الأذى. فأجبت: كيف؟ ... كيف يمكن أن أصدق أنك إنسي وأنا رأيتك تطير فوق الرمال؟! وما هذا الوهج الذي ينبعث منك؟! أي نوع من الناس أنت؟! ... ضحك الشبح بصوت هادئ، وقال: نعم، أنا إنسي، وكنت مثلك، لكنني الآن في عالم البرزخ، فقد مات جسدي منذ فترة طويلة، ولأنني كنت رجلاً صالحاً فقد بقيت روعي خالدة، ولها حرية التنقل.

بدأت أستعيد شيئاً من الإحساس بأوصالي مع شيء من التركيز فيما حوالي، فلم يكن يظهر لي حينها أن هذا الشبح سيفعل أمراً سيئاً لي. رددت عليه: وكيف لي أن أصدق هذا الكلام؟! لم أسمع بمثل هذا من قبل أبداً.

عاد للحديث من جديد ليقول: لا تكن أحمق أيها الشاب، إذا كان للإنسان يوم ميلاد فلا بد أن يكون له يوم موت، وإذا كان الشيء يبدأ فلا بد أن ينته، وما ينبع فلا بد أن ينضب. اقترب مني، ولا تخف ...! فأجبت: على الفور: لا ... لا ... أفضل أن يبقى كل منا في مكانه، وإذا كنت حقاً لا تريد بي السوء فلا تقترب مني أكثر من ذلك. ثم أخبرني ماذا تريد مني؟ ولماذا أفرعتني وأثرت في نفسي الرعب؟!

وضع الشبح يده على لحيته، ومررها عدة مرات، ثم أشار إلي بيده، قائلاً: أنا لم أقصد أن أخيفك أيها الشاب، ولم أكن أسبب الأذى للناس وأنا على قيد الحياة، فكيف أؤذيهم بعد موتي؟ ... لقد اقتربت بمركبتك الحديدية التي تحشر على ظهرها قطعاً من الغنم من مكان سكاني، فأردت أن أنظر من هذا الذي أزعجني في مثل هذا الوقت؟ ثم أخبرني أنت لماذا تحتجز كل هذه الماشية في قفص مركبتك الحديدية؟!

- حسناً أنا لم أقصد إزعاجك، لكن مركبتك تعطلت هنا، فتوقفت مضطراً؛ لأنتظر بزوغ الفجر، فأقوم بإصلاحها، ومن ثم أنصرف. ثم أنا لا أحتجز هذه الأغنام، بل أريد فقط نقلها إلى مدينة الموصل في العراق.

= وجهتك إلى العراق؟ إذاً من أين أتيت؟ ومن تكون؟!

- أنا أيها الشيخ قادم من بلدة هجين، على الحدود العراقية السورية، واسمي صالح العبد.

= هجين ... هجين ... أعرف هذه البلدة، لقد سبق أن كنت فيها منذ زمن بعيد. أذكر أنني رافقت سيدي الملك العظيم (أسرحدون) على رأس جيش عظيم؛ لنقمع تمرداً في أعالي مملكة آرام، فمررنا ببلدة صغيرة على ضفاف نهر الفرات الهادر، كانت تسمى هجين.

- من الملك (س .. سرحون) هذا؟ ومن تكون حضرتك أيها الشبح؟!

= أيها الأحق، كفّ عن منادائي بالشبح، لقد قلت لك إنني لست عفريتاً، بل أنا إنسي مثلك، لكن في عالم البرزخ. ثم ما هذا الجهل؟ هل يوجد إنسان في إمبراطورية آشور لا يعرف سيدي الملك العظيم (أسرحدون)؟!

- أنا آسف يا ... حسناً، ألم يكن لك اسم قبل موتك، حتى أناديك به؟

= بلى ... بلى ... لقد كنت شخصاً مشهوراً جداً، ولا بد أنك قد سمعت عني. إنني أشهر حكيم عرفته بلاد آشور ... أنا الحكيم (أحيقار)، كاتب الملك العظيم (أسرحدون)، وحامل أختامه، وكاتم أسرارته، وكذلك كنت من بعده لوريث عرشه سيدي الملك المظفر (سنحاريب)، قاهر الجهات الأربع.

- أحيقار ... سنحاريب ... من هؤلاء؟! لم أسمع بهم من قبل!

= آه ... يبدو لي أنك يا ولدي لا تفرق بين البصل والبقل، ولا تعرف عن تاريخ بلادك سوى أذنان الماشية.

- حسناً ... حسناً ... يا سيدي الحكيم (أحيقار) لا تغضب مني، فأنا لم أستطع متابعة تحصيل المعرفة، وما أنهيت سوى مرحلة الدراسة المتوسطة، لذلك فمعلوماتي التاريخية ضعيفة جداً. لكن يبدو لي أنك كنت رجلاً فاضلاً؛ فسيمالك توحى بذلك، وقد بدأت حقاً أستأنس بك، رغم أنك على هيئة شبح مضيء، إنني أعتقد أنك شبح طيب!

= لم يكن الملك العظيم سنحاريب يقضي أمراً في إمبراطورية آشور ونيينوى حتى يأخذ رأيي فيه، ولم أخذه أبداً، فكنت أخص المقربين منه، وقد أغدق علي بالكثير من الأعطيات والهبات التي لا أنساها له أبداً، فملكك الكثير من القصور والبساتين والكنوز في نينوى، وقد أوصيت أن يُدفن معي بعد موتي الكثير من هذه الكنوز.

- لكن يا سيدي أحيقار، إذا كنت قد دُفنت في مدينة نينوى فماذا تفعل هنا في هذه القفار الخالية إلا من الوحوش الهائلة؟!

= حسناً، سوف أخبرك قصتي. لقد أمضيت قروناً عديدة تصل إلى سبعة وعشرين قرناً وأنا أعيش مرتاح البال في عالم البرزخ. كانت إقامتي في مكان دفني في نينوى، في ذلك البستان، وتحت أشجار النخيل، حيث كنت أهدأ في النهار، فإذا ما نام الأحياء من الناس نشطت في التجول بين أوابد مملكة آشور العظيمة، وأكثر الأوقات إمتاعاً لي كانت تلك التي أقضيها في قراءة مذكراتي التي دونتها على الرقم. وحيث إنني كنت مستشار الملك فقد كانت لي مكتبة عظيمة، تحتوي نفائس المعارف آنذاك، وقد فعل خيراً من جاء بعدنا من أولاد آشور بأن أفردوا بناءً ضخماً ليجمعوا فيه الكثير من هذه الرقم، وكذلك الكثير من التماثيل التي تتخذ ذكرى انتصارات ملوك آشور وبابل. وقد سمعتهم يطلقون على هذا المكان اسم المتحف، وقد وجدت أنهم اعتنوا بهذه الكنوز العظيمة بشكل جيد، فكان المتحف هو المكان الذي يجعلني أشعر كأنني لازلت في قصر سيدي الملك سنحاريب. ومنذ بضعة قرون رأيت قبائل متوحشة تنحدر من الشرق تغزو أرض السواد، فعاثت في أرجاء المملكة فساداً، بين قتل، وذبح، واغتصاب، وسرقة، وحرق، ... وغيرها من المجازر. وقد لحق ببعض مقتنياتي الخاصة آنذاك بعض الضرر، لكن معظمها قد نجا من عمليات السطو والحرق، فحمدت الله على ذلك كثيراً، وما هي إلا سنوات حتى استيقظ أبناء آشور من غفلتهم، فردوا هذه القبائل على أعقابها، وأعادوها إلى القمم الذي خرجوا منه. منذ ذلك الحين كنت أشاهد بعض الحروب التافهة التي تحدث بين آشور وجيرانها، لكن لحقارة شأنها لم أكن ألقى لها بالاً. ومنذ بضعة سنوات حدث أمر رهيب لم أشهد له مثيلاً من قبل، فقد عادت القبائل المتوحشة بالزحف من جديد على أرض مملكة آشور، لكن هذه المرة قدمت هذه القبائل الهمجية من خلف البحار البعيدة، وقد رأيتهم بعناد لم أشهد له من قبل نظيراً، فقد كانت هذه القبائل تحتمي بعربات من الحديد المسبوك، تساعدتها صقور فولاذية، كانت تقذف أبناء آشور العزل من السيوف بجسارة من الرصاص الملهب، فتحدث انفجارات عظيمة. لقد رأيت من وحشية هذه القبائل المجرمة وهمجيتها ما قرح فؤادي، فلا أكاد ألتفت يميناً أو يساراً حتى أرى جثث الأطفال والنساء والشيوخ تملأ الثرى. لقد زحفت هذه القبائل المتوحشة على أرض نينوى، حيث مكان إقامتي، فإذا بها تدمر المكان الذي جمعت فيه كنوز آشور، وقد رأيتهم يسرقون رقمي وتماثيل سيدي الملك سنحاريب. وما لبثت هذه القبائل أن زحفت إلى البستان الذي فيه مدفني، فحرقوا جميع أشجار النخيل التي كانت تظلني، ونبشوا قبري، ونهبوا ما فيه من كنوز وجواهر ثمينة، حتى مذكراتي الخاصة لم تسلم منهم، فسرقوا الرقم التي دونت عليها سيرتي الخاصة، فحمدت الله كثيراً أن عظامي كانت قد اندرست تماماً، وإلا لما كانت لتسلم من أولئك اللصوص.

ومنذ ذلك الحين لم أعد أستطيع النوم، لا في الليل، ولا في النهار؛ فأصوات الانفجارات التي تحدثها أسلحة هذه القبائل الهمجية تشق السمع. لم يسلبوا فقط مقتنياتي، بل كذلك سلبوني راحتي وهناءة عيشي في عالم البرزخ. وفي إحدى ليالي الصيف المقمرة من السنة الفائتة خرجت فيها أتجول في طرقات نينوى، حتى

وصلت إلى مكان مرتفع، أشرف فيه على جزء كبير من المدينة، فهالني ما رأيته، لقد هلك معظم أشجار النخيل في المدينة - وكان عددها عظيماً - ولحق الدمار بكثير من معالم المدينة، فتذكرت ما كان من سالف عهد نينوى، وكيف أنها كانت مفخرة لأجداد ملوك آشور؟ حيث كان أعظم ملوك الممالك ينحنون لها تعظيماً وإجلالاً، فانتابني نوبة من الأسى والحزن العميق، ولم أعد قادراً على أن أرى حال نينوى هكذا، فقررت أن أجمع بعض أغراضي، وأرحل إلى مكان لا يزعجني فيه الأحياء. كنت وأنا متوجه إلى غرب المملكة أمر على أقاليم البلاد، أشاهد ما لحقها من دمار وخراب على أيدي القبائل الهمجية، وأكثر ما ألمني رؤية قبائل آشور نفسها وهي تقتتل لبسط نفوذها على الزيت الأسود تحت ستار الطائفية. عمت الفوضى في البلاد، وانتشرت معها عصابات قطاع الطرق وميليشيات الطوائف، فخشيت أن تمتلك هذه العصابات أو فرق تلك القبائل المتوحشة أداة تمكنها من رؤية الموتى في عالم البرزخ، فتستطيع أن تقبض علي. ولأنني أعلم أنهم من اللصوص فقد أخفيت بعض الوثائق التي تثبت ملكيتي لبعض العقارات في نينوى في جيب سروالي الداخلي تحسباً لأمر مفاجئ. وهذه الوثائق شديدة الأهمية بالنسبة لي، فهي مهمورة بختم سيدي الملك سنحاريب، وأخشى إذا سُرقت مني أن يستولي بعض الموتى على أملاكي في نينوى، ولا أجد ما يثبت ملكيتي لها مستقبلاً، عندما يستيقظ أبناء مملكة آشور من غفوتهم، فيردوا القبائل المتوحشة الزاحفة من خلف البحار البعيدة على أعقابها، كما كانوا يفعلون دوماً مع كل الغزاة، وتعود الأمور إلى مجاريها، وأرجع إلى مكان إقامتي، فهذا هو سبب وجودي في هذه القفار، ولا يؤانس وحشتي ههنا سوى مجاورتي لنهر الفرات، الذي أصبح ضعيفاً جداً، كأنه أصيب بداء الشيخوخة - كما هو حالي - بعد أن كان نهراً عظيماً هادراً. إن مما يثير حفيظتي هو تحلي أحلاف آشور من الممالك المجاورة لها عنها، فقد كان لآشور عهد النصر في الحروب مع ممالك آرام، وكنعان، وميديا وقرطاجة، وفرعون مصر، ومروي، وأبناء كوش، وقبائل جبال فاران (مكة)، فأين هي اليوم عن نصره آشور؟!

- في الحقيقة يا سيدي الحكيم كلامك صحيح، فقد حدثت هذه الأشياء بالفعل، ولا زالت القبائل الهمجية تسيطر على العراق، أقصد مملكة آشور ونينوى. والألم الذي يعصف بفؤادك يعصف بي كذلك، لكن قل لي يا سيدي: هل سبق لك أن اشتركت في الحروب؟!

= طبعاً ... طبعاً، لقد رافقت ملوك آشور في معظم حروبهم، وشهدت الانتصارات العظيمة، فكل الممالك التي تجاور آشور اليوم كانت تخضع لسلطانها من قبل.

- لقد أحببتك فعلاً يا سيدي أحيقار، وقد ذهبت عني الوحشة التي كانت تملأ فؤادي من قبل، فهل تأذن لي أن أقترب منك أكثر؟!

= ادنْ يا ولدي، واجلس بالقرب مني، فإذا لم تنتفع بحكمتي التي اشتهرت بها على مر القرون الطويلة، فإنك ستنتفع بالجلوس في أنوار روحي، بدلاً من جلوسك في الظلمة الدامسة.

- شكراً لك يا سيدي، وإني أرجو أن انتفع كذلك من حكمتك العظيمة، فهل لك أن تفيدني ببعض ما خبرته من تجاربك، وجنيته من الفوائد في رحلتك الطويلة؟

= نعم، اسمع يا بني صالح العبد، وافهم كلامي، واعتبر نصائحي كأنها "نصائح سماوية"، فاحفظها جيداً في صدرك، وبع مغزاها بقلبك وعقلك، فلعلها تنير لك دربك في الظلمة "عندما تنطفئ كل الأنوار"، فتقودك إلى الطريق الصحيحة، وتوصلك إلى الأمان:

يا بني، إن أكثر الناس ذكاءً من يتق غضب الله، فيقبل على الأعمال الحسنة، ويدع ما دونها. وإن الإله الحقيقي من يعدل بين مخلوقاته، فيستحق بذلك أن يعبد المخلوق. وإن أعدل الناس من ينصفك من نفسه.

يا بني، إن أحكم الناس الزاهد بما في أيديهم. ومن تواضع للمخلوق رفعه الخالق. يا بني، أحسن إلى والديك، فإن أجحد الناس عاق والديه. وأعلم أن أكثر الناس تضحية هي أمك. يا بني، لا تستغل حاجة فقير، فذلك من اللؤم. ولا تعجب بنفسك، فذلك من التفاهة. ولا تعبد المال، فذلك من الذلة.

يا بني، إن أسوأ الرفقاء رفيق المصلحة، فلا تصحبه أبداً. وإن أحقر الأصحاب من غيره المال والمنصب. وإياك ومصاحبة رجل جمع في قلبه الحسد والأنانية، فذلك أجشع الناس، يرى نعمته في زوال نعمتك. يا بني، إن أكثر الناس حظاً رجل قبيح يتزوج امرأة جميلة تحبه، وأقلهم حظاً من أحب امرأة تحب غيره، وأعظمهم سعادة من ظفر بامرأة صالحة.

يا بني، إن أتعس الناس عبقرى بين أغبياء، وأعظمهم حيرة مؤمن لا يُجاب دعاؤه، وأشدّهم غرابة صاحب إعاقة يثير أحزانك وهو سعيد.

يا بني، إن من يعطيك رغيغ خبز لا يملك غيره فذلك أكرم الناس. ومن كظم غيظه وهو قادر على إنفاذه فيك فهو أحلمهم عليك. وادعُ الله ألا يجعل حاجتك عند لئيم، فذلك هو الشقاء بعينه. يا بني، من لم يذق مرارة الفشل لا يعرف حلاوة النجاح. ومن حصل على نجاح لا يستحقه فذلك هو الظلم. واعلم أن الشجاعة الحقيقية في مواجهة نفسك.

يا بني، إن من المروءة أن تقرب إليك المساكين والفقراء. وإن من الرحمة أن تصغي للأطفال والبسطاء. وإن من الحكمة أن تجعل نديمك الصبر، فإنه دواء نافع لكل داء.

واعلم يا ولدي صالح أن "العلم مفتاح باب الحكمة". وإني موصيك في العلم خمساً: خذ عن أهل الدين والسياسة بعقلك قبل قلبك؛ فإنه يكثر فيهم الكذابون والدجالون. وخذ عن أهل علم الطبيعة معارفهم بتشكك؛ فهي لا تثبت قطعاً. واعلم أن الغباء فيهم فاش. وإن أخذت عن أهل العلوم الإنسانية شيئاً فتحترّ القول جيداً؛ فإنهم أكثر الناس تزيفاً للأمور. أما أهل الفن والأدب فلا تصدّق كل ما يقولونه؛ فهم أكثر الناس وهماً، "يقربون البعيد ويبعدون القريب". وإن استمعت إلى أهل الفلسفة فلا تطل المكوث، وعليك بالحذر؛ فإنهم أكثر الناس مكرّاً.

توقف الحكيم أحيقار عند هذا القدر عن الكلام، ثم رأيته وقد استسلم لصمت عميق، بعد أن أغمض عينيه، وقد سكنت أنا كذلك مهابة أن أقطع عليه صمته، فسادت السكينة من حولنا في تلك القفار. مرت علينا ونحن على هذه الحال لحظات أعقبتها لحظات، وبينما نحن كذلك انتبهت إلى سيدي أحيقار فإذا النور الذي كان يشع منه بدأ يخفت، فقطعت عليه سكونه؛ لألفت انتباهه إلى هذا الأمر، لكنه بقي على حاله من الهدوء سوى أنه قال لي: لا تخف يا ولدي، إن تلاشي بعض أنواري علامة أن بزوغ الفجر يقترب، فإذا ما اكتمل البزوغ اختفت جميع أنواري، وعندها لن تعد قادراً على رؤيتي.

- تقصد يا سيدي أنني لن أستطيع رؤيتك في النهار، لكنني سأراك مجدداً في الليل؟
= يؤسفني أن أخبرك يا بني أنك لن تستطيع رؤيتي من جديد؛ فأنا محكوم بقوانين عالم البرزخ، ولا أستطيع التجلي للأحياء إلا مرة واحدة كل مئة عام!

- لكنني أحببتك يا سيدي، واستأنست برفقتك، وأرغب في أن أراك مجدداً، فهل من سبيل؟
= إذا اشتقت إليّ، وأحببت رؤيتي، فاذكر الحكم التي قلتها لك هذه الليلة، حينئذ تستطيع رؤيتي وسماع صوتي، لكن بقلبك وعقلك، لا بعينك وسمعك. كانت هذه آخر كلمة قالها الحكيم أحيقار، وما هي إلا لحظات معدودات حتى بدأت آخر أنواره تذبل كما تذبل الورود، فكنت أرى سيدي أحيقار وهو يبتسم ويومئ لي بيده مودعاً، حتى تلاشى نوره تماماً، ولم أعد قادراً على رؤيته، في حين أصبحت قادراً على رؤية القفار والرمال؛ حيث كانت خيوط الفجر قد بزغت تماماً. بقيت في ذلك المكان أجتو على ركبتني أمام الموضع الذي كان يجلس فيه الحكيم، أنظر إليه، ولم انتبه من هذه الحالة إلا على إنذار أبواق إحدى الشاحنات التي توقفت للاستفسار عما أصاب شاحنتي. قمت إلى شاحنتي، فأصلحتها، وقبل أن أغادر المكان وضعت علامة ثابتة في الموضع الذي قضيت فيه ليلتي برفقة الحكيم أحيقار، فكنت فيما بعد أعود إلى هذا الموضع؛ لأزوره كلما مررت بالقرب منه وأنا مسافر في ذهابي وإياي، فأبكي ما شاء الله لي أن أبكي شوقاً إلى هذا الرجل الطيب، فقد انتفعت بحكمه التي علمني إياها كثيراً. وما ذكرت إحدى حكمه إلا سمعت صوته ورأيت صورته بقلبي وعقلي كما كان قد أخبرني.

هذه هي قصتي مع الحكيم أحيقار، وقد أخبرت بها كثيراً ممن أعرف، لكن للأسف لم يصدقني أحد، حتى أنني بعد عودتي لهجين سألت جاري باسل - مدرس التاريخ والجغرافية - إن كان لديه معلومات عن تاريخ شخصية الحكيم أحيقار في عهد الملك سنحاريب، فأخبرني أنه لم يسمع به من قبل، فعلمت أن معرفة جاري بالتاريخ تشبه معرفتي باللغة الصينية؛ لأنني متأكد يقيناً بأن الحكيم أحيقار ينتمي لمملكة آشور ونيينوى، وإني على يقين بأن الرجل الحكيم سوف يعود ليظهر من جديد في مملكة آشور، وفي الممالك التي تجاورها، وإني لأرجو أن أجد من يشاطرنِي الرأي ممن يتاح له أن يقرأ قصتي هذه أو يسمع عنها. والسلام نهاية الكلام.

مفتاح القيد

عاد مسافر إلى مدينته، فوقف على تلة تطل على أحياء هجرتها أسراب الفرح، فخلفت أهلها أيتاماً، لا سهم لهم في الحياة سوى رجوم بور جنيها الشوك والأثل. في ذلك الركن المظلم من على تلك التلة كان يتذكر مشهد وداعه لتلك الفتاة، التي كان قد أحبها حباً جماً، عندما رحل عن مدينته هذه - قبل عقود خلت - تباعدت الخطى، وشيعت الأشواق، وغمره الوهم، كموج عظيم يقذف به في بحر هائج، فأسلم فيه زورقه لشراع مجهول، ورمى بشباكه لهثاً خلف آمال واهيات، فما جنى سوى زيف وخيبات وأصداف خاويات. لم يكن البحر والموج سوى رمال متحركة في صحراء قاحلة، ولم تكن أمانى المجد والثروة في البلاد البعيدة سوى سراب. رجع إلى مدينته هرباً من جحيم الغربة، فوجد نفسه في مكان لا يعرفه، تنكرت له البيوت والجدران والطرق، وتغيرت عليه الوجوه، ومات معظم من عرفهم من الأهل والأصحاب، ورثا وجهاً كان يحلم برؤيته، فجال بطرفه على رسم دارس، فتمثلت له الفانية ثملة تذرف لأحزانه، ووقفت نفسه وفيها تأمل لبائٍ رق خافقه على طلل فاني، وهشيم هبته الريح، فعدت به وجه الأرض فبدا مهائلاً، وسحريستنفري الأحشاء خوال توقد النيران، فذاب السهد في أجفانه، وانبعث الشوق يعتصر في أركانه، على زهر وروض وجنان، ومثوى مهيب لغيداء ملكت عليه من قبل الوجدان، حين أفضى سره لطرفها الفتان، فناشدها منه قلب اكتوى بعذابات الوجد حتى ذرا رماده الزمان مكلوماً يحزل الدمع قطراً بجمل، والمجنون له سلونا، وقد بات بالنشوة مولعاً، وما بالكأس يولع عقل الحيران، حرقة المجون بمعتق زلال مندى برمش ريان، ونفس هائمة بوصال، كالغريق ينجي الشيطان، حياة معذبة رزأتها كف اليأس شرخاً تطويه الجراح بالآلام مزدان، وجسد أبله العشق كثوب ممزق يخيط التجدد بات ولهان، وعهد تسامت به النفس عن كل رذيلة فكانت بالطهر حسان، ما خط اليراع في يمينه حرفاً سوى كل ما بدواة الصدق آن، يرجوها بالسماء التي بها آمنت ألا تضن على معذب بمغفرة ذنب، والتماس عذر، فلو علمت ما كان من أمره في غربته لبكته حتى يرق الصلبد الأصم، ويشهد عليه الرقيب بأنه أفنى العمر بروح تفديها عهداً لها به يسان، يخبرها بعشقه، وما يوجزه ألف ديوان. كان الليل يطول به بعيداً عنها، ويشدو يراعه المتمرّد شاكياً في السهر حرقة الأشجان، حتى يسقم الصحيح في معتقده أن كل الرؤى مثله في كربان، وكم هاج به الوجد ونفذ منه الصبر حتى خلفته التباريح سكران، وكم شرح ما جال به القلب من شوق لنسيم طيفها يشدو اللقاء بالغيب قربان، وكم جمل نفسه بالسكينة، لكن الشوق يغلبه إليها، كالهودج يأبى إلا الميلان، وكم سح من مقلتيه دمعاً منتظماً كنهر دائم الجريان، فمضى زمناً ما غرس به سوى شوك الحزن بستان، حتى بدا طيفه المنسي شاحباً، فانحلّ رسمه في الأجفان. فسلام على الدنيا من بعدها ... سلام، فليس له فيها مقام إلا كراهب في دير يلتحف صمت الأكفان.

إن المرء لا يستطيع أن يتخيل كيف أن والد هذه الفتاة كان سبباً في مأساتها، ومأساة هذا المسافر العائد. كانت تعمل معلمة في منطقة الريف، جنوب المملكة، وعندما تقدم لخطبتها كانت في سن الخامسة والعشرين، وهو من أبناء قبيلتها، ويربطه بها نسب، كان يعمل مراقباً فنياً في مؤسسة المياه، بشهادة دبلوم صناعي متوسط، وكلاهما ينتميان لأسرتين فقيرتين. رفض والدها طلبه مراراً، ولم يكن يذكر السبب، لكن عندما وضعه أمام الأمر الواقع بأنهما يرغبان في الاقتران عن ألفة في النفس، وقناعة في العقل، وحب وقر في القلب، أفصح الأب عن سبب رفضه، يريد أن ينتفع من راتب ابنته، ولن يسمح لهذا الخبيث أن يسرق هذا الدخل الشهري، الذي هو أحق به، أفليس هو الذي أنجب وربى وعلم حتى غدت معلمة؟ الآن يريد هذا الطامع أن يسرق ثمرة تعب من غير مقابل.

أقسم له الأيمان الغليظة بأنه غير طامع في راتبها الشهري، بل إنه يرغب فيها زوجاً، ورفيقة للحياة، لكن هيهات أن يقتنع الأب المتسلط. لم ييأس من أمل موافقة الأب، بل كرر طلبه المرة تلو الأخرى خلال ثلاث سنوات، يرسل مرة والدته، وأخرى جارتها، وهكذا مرت عليه تلك الأعوام، وكان حبها الشديد له يدفعه للتمسك بها أكثر، ويجعله يصبر على تعنت والدها، وبعد كل هذه المحاولات لم يكن لديه سوى اللجوء إلى شيخ عشيرتهم، يستنجد به لعله يعينه على ذلك الأب الذي يعضل ابنته من الزواج للانتفاع براتبها، فاستجاب ذلك الشيخ لطلبه، وحاول الضغط على والد الفتاة، الذي وافق على زواجهما بشرط أن يلتزم ذلك الشاب بإرسال راتبها له بعد الزواج كل شهر، فقبل من غير تردد؛ إذ لم يكن أبداً غايته الراتب، بل تفرط قلبه كمداً على فتاة يحبها وتحبه، لكن الأب ما لبث أن رجع في كلامه، متذرعاً بأنه لا يثق في التزام ذلك الشاب بهذا الاتفاق، حتى ولو كان مكتوباً، فبعد أن أصبح زوجته لن يستطيع مطالبة بشيء، فحار معه ذلك الشاب، واغتمت الفتاة من جبروت والدها. لكن بعد محاولات جديدة من الضغط الاجتماعي عليه قبل تزوجه بشرط أن يدفع مهرها مقدماً ما قيمته راتبها لمدة عشر سنوات!

فشعر وكأن أبواب الدنيا قد أقفلت في وجهه، كيف له أن يجمع مثل هذا المبلغ من راتبه المحدود؟ وهو ينفق منه على والدته الأرملة وعلى إخوته السبعة الذين تركهم والده أمانة في عنقه بعد موته، لقد رمى والد تلك الفتاة الكرة في مرماء وهو يعلم أنه لا يقدر على صدها، فكان يقول له بالفم الملآن: أحضر المهر والفتاة لك! وهو يعلم حق العلم أن هذا الشرط معجز له، ولا طاقة له على الإيفاء به، فأشار عليه أهله وصحبه بأن ينسى أمر هذه الفتاة، ويبحث له عن زوج أخرى، لكن حبه لها كان قد تمكن من قلبه، حتى صار بمثابة الدم الذي يجري في شرايينه، فإما هذه الفتاة زوجاً له وإما لا زواج من غيرها. بل كان يشعر في أعماق ضميره أنه يلتزم أخلاقياً تجاه هذه المسكينة التي تحكم بمصيرها هذا الأب الجائر، وهو يعلم تماماً أنه إن تركها فسوف يسلك والدها نفس المسلك مع غيره إن تقدم لها.

ثم قلب الأمور على جميع أوجهها فلم يجد بداً من الصبر، لعل الله يحدث أمراً ما، فكان ينظر إليها وتنظر إليه في كل صباح - وهما ذاهبان إلى العمل - بحرقة شديدة ومرارة بالغة، واستمر الحال هكذا حتى مرت ثلاثة أعوام، والأب لا يزال متشبثاً بحماقته، وماضياً في غروره وأنانيته.

ضاق ذرعاً بنفسه وبمجتمعه، فاستغل إنهاء أخيه الأصغر للمرحلة الثانوية، وحصوله على عمل في مقسم الهاتف، فقرر السفر إلى بلد أجنبي غني؛ عساه يتمكن من الحصول على فرصة عمل أفضل، تمكنه من جمع المهر المطلوب منه، فقال له أقاربه: إنك تعيش في أغنى بلد في العالم ولم تستطع جمع المهر، فكيف ستجمعه في البلاد الغريبة؟ بل إن الفتاة أرسلت إليه تستحلفه بكل عزيز ألا يسافر، وأن يبحث له عن زوجة أخرى يبني معها حياته، وأن يتركها لمصيرها، فقد ابتلاها الله بهذا الأب، وليس عليه تحمل هذه المعاناة معها. لكنه ازداد إصراراً وثباتاً على فكرة السفر، وأكد لها أنه لن يرضى غيرها حبيبة وزوجة له، وليكن لديها الأمل والإيمان بأنه سيعود قريباً وهو يحمل مفتاح القيد الذي كبلها والدها به. وهكذا مضى في رحلته إلى تلك البلاد البعيدة، ثم مرت الأيام والشهور والأعوام الطويلة، ولم يعد يسمع عنه أحد شيئاً، وانقطعت جميع أخباره، لكنها لم تفقد الأمل بعودته أبداً، فهي تعرف مقدار الحب الذي يكنه لها، ولا بد أن ظروفًا قاسية حالت بينه وبين مكاتبها، أو الرجوع لفك قيدها، واستنقاؤها من دائرة عضال والدها لها، فلم تتزوج بعد سفره رغم تقدمها في العمر، وبقيت تنتظر عودته، حتى فاتها قطار الزمن، وأصبحت عانساً، يزهدها فيها الرجال، فلا يتقدم لها إلا مردول أو عجوز مزواج، ثم وافى الأجل أباه، إلا أنها في نفس العام أحست بالآلام طفيفة في بطنها، فراجعت الطبيب، فتبين بعد الفحوصات أنها مصابة بسرطان المعدة، فلم يمهلهما المرض الحبيث أكثر من ثمانية أشهر حتى كانت جسداً يسجى لحداً ويحس عليه التراب، ولم يجدوا في وصيتها غير جملة واحدة تقول: أكرهك يا أبي!

واليوم عاد ذلك المسافر من رحلته الطويلة، ولا أحد يعرف ما الذي حدث معه، ولماذا انقطعت من قبل أخباره؟ لم يحاول أحد أن يسأله عن شيء؛ فقد نسي معظم الناس قصته، بل الكثير ممن كان قد عرفهم قبل سفره طواهم الموت، وكل ما عرفه أهل المدينة عنه، هو جملة واحدة كان يرددتها كثيراً: لم أجد مفتاح القيد!

جدل عربي

في محطة قطارات (الكسندر بلاتس) الشهيرة في قلب مدينة برلين تدفقت تيارات من جموع المسافرين، تنساب من وإلى مداخل المحطة ذات الطبقات الثلاث: أعلاها لقطارات الجسور، وأوسطها لقطارات الأرض، وأسفلها لقطارات الأنفاق. وكأن محطة المدينة العملاقة تعكس بطبقاتها الثلاث أصناف البشر من العلي والوضيع وما بينهما. في ذلك التجمع البشري الهائل الذي ملأ صحن تلك المحطة، وفي أحد مواقف القطارات الأرضية - حيث يزداد الازدحام شدة - علا صوت غاضب مجلجل بلكنة عربية، فطغى على ثرثرة مئات المتحدثين من الألمان، مما استجلب إليه انتباه المسافرين، الذين لا يفهمون اللسان العربي، لكن حرارة الانفعالات وتعبير الإشارات وضجيج الكلمات كان يشق السمع. ولأنني أفقه رموز ذلك اللسان كان حرياً بي أن أكون أول المنصتين له، فسقطت عيناى على شابين عربيين صغيرين في العشرينيات من عمرهما، أمردي الوجه، أجعدي الشعر، أدعجي العينين، شديدي السمرة، اقتربت منهما أكثر؛ لمعرفة سبب صراخهما، الذي ملأ المكان صخباً وضجيجاً، حتى على صوت القطارات. كان أول ما استقبلني منهما رائحة الدخان العفنة التي تنبعث من ثيابهما، وقفت إلى جانبهما محاولاً أن أفهم ما يدور بينهما، ولم يشعر بدنوي منهما؛ لاستغراقهما في حديث ملك عليهما جوارحهما، فأنساهما نفسيهما، حتى غابا عما يحيط بهما. وليتنى لم أنصت إلى ذلك النشاز من الخرف الذي يدور بينهما، فقد كان أول ما وقع في أذني من حديثهما كلمة بذئية، لو غُمست بماء نهر عذب لجعلت منه مستنقعا آسناً، كانت تلك الكلمة البذئية صفة ينسبها صاحب لصاحبه، فقد فهمت بعد برهة تلتها برهات أن هذا الصراخ - الذي أزعج مئات الناس من حولهما - ما هو إلا نقاش بين رفيقين من شباب العرب في برلين. اختلفا في مسألة من المسائل، التي يبدو أنها شديدة الأهمية لهما، وتعني لهما الكثير، حتى جعلتهما يغوصان في هذا الجدل الملتهب، فكانت ألطف كلمة سمعتها منهما كلمة (حمار)؛ ينادي بها خالد محموداً، فيجيبه الثاني بمثلهما، وكانت الكلمة الفاحشة تروح وتجيء بينهما دون أن تترك أثراً على وجدانهما يتناسب مع عظمها وقباحة تداولها. بدا لي أن الكلمات البذئية والأفكار الهزيلة هي الأصل في أخلاقهما. في حين كانت تطراً الكلمة الطيبة على استحياء، وكأنها هي الشذوذ والاستثناء. وقف جمع غفير من المسافرين الألمان يتأملونهما ويتفحصونهما من أخمص قدميهما إلى أعلى رأسيهما والأسئلة الحائرة تدور في أعينهم: ترى على ماذا يختلف هؤلاء الأغراب؟ وما نوع هذه العجمة التي تثرثر بها ألسنتهم؟ ربما كنت وحدي أفهم ما يجري بين خالد ومحمود. وليتهما حفظاً حق اسميهما، وعرفاً أي الرجال كان خالد ومحمود في أسلافهما. حمي وطيس الكلام، وألصقت الطعون والفواحش في الأنساب والأرحام، ولا زال الجدل مستمراً. يصر خالد على رأيه، ويسفه محمود ذلك منه. يتهمه الأول بالغباء المدقع، فيرد عليه بأن مكانه الصحيح يجب أن يكون في حظيرة البهائم، وليس في محطة (الكسندر) في برلين، فيثور بركان غضبه، فيسب ربه ودينه وكتابه. قلت: الآن يبطش بصاحبه؛ فليس هناك حرمة أعظم من

هذه، لكن صاحبنا لم يبالِ بذلك سوى أن وصمه بالتخلف والجهل، وأنه لا يفهم شيئاً في عالم التقنية والحداثة! فلما سمع هذا منه استشاط غضباً، فاحمرت عيناه وجحظت، وانتفخت أوداجه، وفقد السيطرة على لعبه، فرافق ألفاظه حين خروجها من فمه، وعاجل بالرد بكلمات كالحجارة الملتهبة التي يقذفها خبث البركان. لم أستطع التدخل لإنهاء ذلك الجدل؛ لعلمي بأنني لو فعلت لم يستمع لي أحد، ولرغبتي في معرفة المزيد عن أخبار ناشئة العرب بألمانيا، على أي شيء يري العرب أولادهم في بلاد الغرب؟ وما هي همومهم وأخلاقهم وأحلامهم؟ بقيت في مكاني أستمع لذلك الجدل الدائر بينهما، الذي لم يكن إلا "كالسراب الذي يحسبه الظمان ماءً"، وهو ليس إلا وهم. لم أكن وحدي المستمع، بل كانت آذان كثير من الألمان قريبة من ذلك الجدل، وإن كانت عيونهم بعيدة إلا أنها تختلس النظرات، فقد جرت عادة هؤلاء القوم أن يهتم كل بشؤونه، وأن تشغله أعماله وواجباته عن غيره، لكنني للحق أقول: إن تلك النظرات كانت مليئة بالاحتقار والدونية لبني جلدتي، ولم أكن لألومهم في ذلك الموقف؛ إذ كنت أتمنى حينئذ أن أنخلع من جلدي، وأن أدفن نفسي في حفرة عميقة؛ خجلاً من الحال الذي عليه بني أمتي، في أي غفلة من الزمن ظهر فينا أمثال هؤلاء وكثروا حتى أصبحوا السواد بيننا؟! في أي نفق مسدود سرنا؟! وفي أي جحر عميق سكنا؟! أي مهانة لأنفسنا وأولادنا ارتضيها؟! لقد تشربت أخلاقنا الرذيلة والكسل والإهمال، حتى أصبحنا مضرب المثل في الجهل والتخلف بين الأمم. كيف سقطت بنا الهمم عن بلوغ القمم وقد كنا من قبل ساداتها، وهويتنا لازمة لروادها؟! كانت هذه الأسئلة والهموم تنهال في تلك اللحظات على ساحة عقلي، فتستنفّر أعز مشاعر الأسى وأعمقها في أركان قلبي وكياني، فاندخلت بها عن ترهات جدلها وسفاهة أحلامها وسقوط أخلاقها. كيف لا تكون هذه أوصافها؟! وما كان الذي أهمهما وأشعل فتيل خبيث الجدل بينهما إلا سؤال تافه متناقض، مفاده: أيهما أسرع، سيارة (المسيدس) - الألمانية - أم سيارة (بي إم دبليو) - الألمانية أيضاً؟ ... ليتهما اختلفا في سيارة من صناعة أمتهم، أو في شيء ينتمي إليهما. هل يعقل أن ينشغل شبابنا في البلاد المتقدمة بمثل هذه التفاهات؟! هل عميت عيونهم وعيون آبائهم عن الجامعات ومراكز البحث التي يحلم بها نظراؤهم في أوطانهم؟! هل عميت عيونهم عن فنون تربية الرجال التي يعلمها الغربيون لأبنائهم، ونحن نسكن بين ظهرانهم ونعيش على فضلة موائدهم؟! تنبهت على صوت إنذار القطار الذي أنتظر وصوله، فأدبرت ظهري للمتجادلين، اللذين استمرا في الغوص في أحوال أوهامهما، وركبت إحدى عربات القطار ماضياً إلى شأني، والأسى يغمر مهجتي، والدمعة تحار في مقلتي على شباب أمتي.

وجد حلاً

أرعى لجام أفكاره، وأسند رأسه إلى حائط حجرته بعد أن ارتفع بجسده عن الفراش الذي كان راقداً فيه طوال الليل، فشعر بلسعات البرد تقرص رأسه من الحائط المتجمد من شدة الصقيع الذي يعصف في الخارج، استغرق منشغلاً بعراك أفكاره فغاب عما يحيط به من أشياء، وتلاشى إحساسه بالبرد. كان حائراً أشد الحيرة، ماذا يفعل بمشكلته؟ فقد تردّت أحواله المادية بسبب فقدته لعمله، فثقلت عليه الحياة حتى ملّها، وغلّقت الأبواب في طريقه حتى فقد الأمل في العثور على مفاتيحها، فخيّل إليه أنه أمام مشكلة بلا حل. تساءل إن كان العيب فيه، ولغبائه فرّت من قبضته الحيل، وتوشحت الحلول عن ناظره، ثم تذكّر أن أباه كان يلقيه دائماً بالفشل، فوجد في ذلك إجابة عن تساؤله، لكنه سرعان ما أبدا امتعاضه الشديد من وصف والده له بالفشل، فاستبعد هذه الفكرة، وبدأ يبحث عن مبرر آخر ليلقي باللائمة عليه، ويحمّله سبب فقدانه عمله في شركة التبغ، فتساءل مرة أخرى إن كان من الأفضل ألا يستجيب لمطلب رئيس الورشة التي كان يعمل بها، فيشاركه في سرقة كمية من التبغ، أم أن المشكلة تكمن في سوء حظه، فلو لم تكتشف لجنة الرقابة هذا الأمر، لاستطاع أن يجني المال الوفير من بيع التبغ المسروق .. أكد لنفسه من جديد أنه ليس رجلاً فاشلاً، بل المشكة الحقيقية أنه لا يمتلك حظاً سعيداً، ثم أخذ يمرر عينيه في جسد الحجر، محملاً بزواياها، فلا يرى فيها غير الأشباح البشرية، تنام في كل شبر منها، فذكرته حجرته بالخندق الذي قضى به خدمته العسكرية قبل ثمانية عشر عاماً، فقد عمّت الفوضى أرجاءها التي يخبو منها الرجا، وتسلسل العفن إلى جدرانها المتسخة بالشخاير التي يحدثها الأطفال، بل حط العنكبوت رحاله في زواياها، وشيد مصائد بدون استئذان، وبكل وقاحة راح يزاول عمله المعتاد، دون أن يستحي من صاحب الحجر وهو الجاثم من غير عمل. وما هي إلا برهة صغيرة حتى سمع زوجته بالقرب منه، تهمس له وتستفسر عن سبب استيقاظه في هذه الساعة، فلا يزال الوقت مبكراً على طلوع الشمس؟! نظر إليها مستغرباً وهو يسأل نفسه كيف استيقظت؟ لم يصدر منه أي صوت، بل كان متجمداً في مكانه كالتمثال، فخطر بباله فكرة غريبة، وهي أن زوجته قد سمعت صوت أفكاره .. لكنه استدرك ذلك بالسخرية من نفسه، وأكد أن هذا الأمر مستحيل وغير معقول، فاستبعد هذه الفكرة، لكنه ما لبث أن عاد ليحدث نفسه من جديد: وماذا لو كانت هذه الفكرة صحيحة؟! ماذا لو أن زوجتي حقاً تستطيع أن تسمع صوت أفكارني .. لا شك بأنها ستكون مصيبة كبرى؛ فالنساء - برأيه - لا تودع الأسرار، بل إنها بذلك ستعرف جميع أسرارها التي يخفيها عنها. إنه يعني بالتحديد أهم أسرارها، وهو أنه قد تزوج منها مرغماً، إذ على الرغم من كرهه الشديد لها، وعدم رغبته في الاقتران بها، فإن والده كان قد أجبره على فعل ذلك بسبب صلة القرابة بينهما، هذا بالإضافة إلى أنه لم يدفع من مهرها قرشاً واحداً، فلم يشترط أهلها عليه شيئاً، ولو فعلوا ذلك لما تزوجها.

سمع صوت زوجته من جديد وهي تقول له: ما بك ألم تسمعي؟! سألتك عن سبب استيقاظك في مثل هذا الوقت. فقطع سلسلة أفكاره في هذه الأثناء وأجابها مغضباً: إنني أفكر بجل يخرجنا من هذه التعاسة التي نعشيها. لكن زوجته عادت لتسأله مرة أخرى: وهل وجدت حلاً؟ فأجابها: لا! فقالت له بسخرية شديدة: إذاً أنصحك أن تنام؛ لتذهب مبكراً للبحث عن عمل في المدينة، أم نسيت أنه يتوجب عليك ملء أفواه سبعة أفراد: بناتك الخمسة، وأنا، وأنت؟!

كانت كلمات زوجته الساخرة تثير في نفسه الاشمئزاز، ف شعر بضيق شديد يكاد يخنقه، وأحس بأن عائلته كالديدان التي تتطفل على جسده. كان يقول في نفسه: لو ولدت لي هذه الزوجة الثرثرة ذكوراً، لأعانوني في كسب العيش. ولو امتلكت المال، لما تأخرت برهة عن تزوج امرأة أخرى، تنجب لي الذكور، بدلاً من هذه الثرثرة المزعجة، التي لا تلد غير الإناث. مرّت عليه ساعات وهو على هذه الحال دون أن يستطيع النوم، حتى أشرقت الشمس، فنهض من فراشه متمللاً، ارتدى ثياب العمل على عجل، ودون أن يتناول الإفطار خرج من كوخه القديم - المكون من حجرة، ومطبخ صغير، مسقوف بالصفيح المهترئ - وسار ببطء إلى موقف الحافلات، وهو يلف سيجارته بإحكام شديد، متفنناً في تدوير أطرافها وتهذيبها. وعلى الرغم من أن تبغها كان من أرخص الأنواع وأرذئها، فإنه ضغط عليها بين شفتيه، وأخذ يتذوق نكهتها بشغف، والأمل يحده أن يجد حلاً لمشكلته، أو - على الأقل - أن يجد عملاً في هذا اليوم الرطب البارد.

انقضت ساعات النهار الشتوي بسرعة شديدة، وسقطت الشمس في وكرها، وأسدل الليل ستائر، كانت الزوجة تحدث نفسها فتقول: لا بد أنه قد وجد عملاً، وإلا لما تأخر هذا اليوم! وما هي إلا لحظات وتعقبها لحظات، حتى قرع الباب ... أسرع إيمان - البنت الكبرى، التي تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً؛ لترى من في الباب، فكان والدها، لكنه لم يكن وحيداً، بل أحضر معه ضيوفاً! أوعز إلى ابنته لتخبر والدتها، ودخل الضيوف إلى الحجرة المتهلهلة، ذات الأثاث القديم، في الوقت الذي أسرع فيه الزوجة وبناتها إلى حجرة المطبخ الصغيرة، كان الضيوف رجلين: أحدهما يعرفه الجميع؛ إنه سمسار الحي، الذي عُرف عنه سعة الذمة، وقلة المروءة، رأس الحكمة لديه عبادة النقود. والآخر شيخ طاعن في السن، بلحية بيضاء، وجلباب أبيض، وغطاء رأس أبيض، وحذاء أبيض، وحاجبين بيضاوين كثين سقطا على جفنيه، وبوجه أسمر عاتم، لا يبشر بشيء من الخير أو الطيبة التي يعهدها المرء في وجوه الرجال المسنين .

أغلق الزوج باب الحجرة، وغاص بمجدال ونقاش طويلين مع ضيفيه، خرج من بعده إلى عائلته وبيده رزمة من القطع النقدية الخضراء، وفي وجهه بشرٌ شديد وفرحة، سألته الزوجة وهي تنظر إلى رزمة النقود بتلهف: بشارك يا رجل هل تعاقدت مع الضيوف من أجل عمل فأعطوك المال؟.

فأجاب الزوج: لا، بل وجدت حلاً لما نحن فيه من فقر مدقع، ودين بغیض، لقد بعنا ... "وتلعثم بكلامه" ... آه ... أقصد زوجنا إيمان للشيخ أبي جاسم، صاحب السيارة الفاخرة التي تقف أمام البيت، سيتزوجها وتساfer معه، وبالتأكيد سوف تكون سعيدة معه في تلك البلاد!.

دائرة القمامة

كان المشرف الأستاذ سامي يجلس مع بقية زملائه في اجتماع نهاية الأسبوع المنعقد بمدرسة قرطبة الثانوية، كان كعادته ينصت أكثر مما يتحدث، ولم يستمع خلال هذا الاجتماع إلى مداخلة من أحد زملائه إلا وكانت مفعمة بالثناء والمدح لمدير الثانوية. وما أن انفض الاجتماع، ومضى كل في سبيله، حتى تبادر إلى أذنيه وهو يمشي خلف بعض زملائه - دون أن يشعروا به - كلماتهم الجارحة المحقرة لمديرهم! فوصفه أحدهم بالطبل الأجوف، وزاد عليه الثاني بأنه متسلط ومغرور، ثم وصمه بشدة الغباء. قال الأستاذ سامي في نفسه: عجباً لهؤلاء! فقد كانوا من أكثر الموجودين إطرأً ومدحاً للمدير، وإذا كانت هذه هي وجهة نظرهم به، فلماذا لم يقولوها علانية؟! تركهم في شأنهم، وسار في الشارع المفضي إلى سوق المدينة، فمرّ بقبوة الخلان، شعر بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة مع كوب من الشاي الساخن. دخل ذلك المقهى بقامته الطويلة، وجسده النحيل، وشعره الأجعد، يتأبط جريدة، واتخذ لنفسه طاولة في وسطه، ثم طلب كوب الشاي، وبعد أن أحضره النادل، ووضعه على طاولته، تناوله بيده اليمنى، ثم رشف منه رشفة صغيرة، فأعجبه مذاقها الطيب. وضع كوب الشاي أمامه، وفتح الجريدة يقلب ناظريه في عناوينها، يقطع بها الوقت، وهو على هذه الحال كانت الضحكات والقهقهات تنطلق من على طاولة تجاوره، جلس عليها ثلاثة من الرجال المسنين، يتجاذبون أطراف الحديث. لقد شده منظر السعادة والفرحة التي تغمرهم، فأخذ يستمع إلى حديثهم دون أن ينظر إليهم، إذ كان يتخفى خلف جريدته. كان جل حديثهم عن ذكرياتهم الطويلة في العمل قبل أن يصلوا إلى سن التقاعد، وكانت مشاعر الأخوة والمحبة تتقطر من حديثهم، فلا يخاطب أحدهم الآخر إلا بالطف العبارات وأرقها، وهكذا استمر الحال، إلى أن استأذن أحدهم للذهاب إلى الحمام، فإذا بأخويه الآخرين يتناولاه بأقبح الصفات وأشنعها. وصفه الأول باللص السابق، وأكد أنه اختلس كثيراً من أموال الشركة التي كان يعمل بها. أما الثاني فأجابه بأنه لا يحتاج إلى أن يؤكد له هذا الأمر؛ فالسرقة خصلة متأصلة في نفس هذا الرجل. أثار هذا الأمر الدهشة في نفس الأستاذ سامي، كيف بهذه السرعة تحول الصديق الحميم - الذي تجمعهم به ذكريات العمل الطويلة - إلى سارق تتأصل صفة اللصوصية في نفسه؟! وما هي إلا لحظات حتى عاد صديقهم من الحمام، فجلس معهم، فبادره أحدهم بمدحه على أنه كان مضرب المثل في الأمانة وحفظ حسابات الشركة حينما كان محاسباً فيها. وما هي إلا دقائق حتى جاء عامل المقهى ليخبر هذا المادح المنافق بأن زوجته تطلبه على الهاتف، فنهض من فوره، وهرع إلى هاتف المقهى ليجيب زوجته. وما أن ابتعدت خطواته قليلاً عن الطاولة حتى بدأ جلساؤه يتغامزون عليه، فقال اللص: يا له من جبان، منذ عرفتته وهو كالكلب في استكانته وخضوعه لزوجته. فأيده الثاني، وزاد عليه: إن الجبن صفة لازمة في شخصه. وما أن عاد الجبان إلى الطاولة حتى بادره المغتاب الأخير واصفاً إياه بأنه الرجل المر، الذي لا تستطيع زوجته أن تنظر في عينيه، فأكد المغتاب الأول وجهة النظر هذه بأن وصفه بالرجل الذي لا

يشق له غبار، ثم ضحكوا وهم يربتون على أكتاف بعضهم. لم يستطع الأستاذ سامي أمام هذا النفاق أن ينتظر في هذا المقهى ليكمل شرب الشاي، فقد عُرف عنه الجرأة في قوله لرأيه الصريح دون التفاف أو تزلف، وذلك لم يكن ليتعارض مع دمائه خلقه وطيب معشره وحسن سمته. طوى جريدته، ووضعها تحت إبطه، ثم خرج من المقهى، وتوجه إلى أحد محلات الخضار الذي علقت عليه لافتة بعنوان (محل التقوى)؛ ليتسوق ما أوصته به زوجته صباحاً. وما أن وضع قدمه الأولى في المحل حتى سمع صاحبه يخوض مع أحد زبائنه في ذمة صاحب محل الخضار الذي يجاوره، فكان يتهمه بالغش والتدليس وسرقة الزبائن! توقف الأستاذ سامي في مكانه قائلاً: والله لا أشتري من هذا البائع الأفاك. ذهب إلى محل آخر، ثم تناول كيساً، وأخذ ينتقي الناضج من الخضار، وكان بجواره امرأتان تنتقيان الخضار كذلك، سمعهما تغتابان جارة ثالثة لهما، فوصفتها الأولى بأنها لا ذمة لها، تقتل القتل ثم تتباكى عليه. أما الثانية فزادت عليها بأنها تتعامل مع السحرة والمشعوذين؛ ليصنعوا لها أعمالاً لأزواج بناتها وزوجات أولادها..!

شعر الأستاذ سامي بعد سماع هذا الإفك برغبة شديدة في القيء، فدفع ثمن ما اشتراه، ثم توجه إلى موقف (الباص) الداخلي - الذي يسمى موقف الانضباط - انتظر مع جمع غفير من الناس قدوم (الباص) الذي تأخر عن مواعده، فكان مما شاهده في فترة الانتظار أمراً عجيباً، مرَّ به ثلاثة تلاميذ كانوا عائدين من مدرستهم الابتدائية، وعندما وصلوا إلى موقف (الباص) تركهم أحدهم، بعدما ودعوه وداعاً حاراً، تعانقا فيه، وتواعدا للقاء في اليوم التالي، وما أن بعدت خطواته قليلاً حتى وصفه أحد الطفلين بأنه تلميذ أناني، ولا يجب غير نفسه، بل هو منتن ورائحته كريهة!

قال الأستاذ سامي لنفسه: لا بد أن يدافع الآن الطفل الآخر عن عرض أخيه؛ فقد بدا شديد الحب له حين ودعه! لكن المفاجأة كانت أن فعل هذا الطفل فعل الكبار، فجاري زميله في نهش لحم أخيه، فوصفه بالغي والكسول، ولعله هنا فضل أن ينوع الغيبة بدلاً من تكرار الصفات التي ذكرها المغتاب الأول.

وصل (الباص) الداخلي فتدافعت المناكب والأيدي والأرجل، وأخذ الأستاذ سامي نصيبه منها في صعوده إلى الحافلة، وبعد معركة طويلة استطاع أن يظفر بموضع قدمين يقف فيهما وسط ذلك الحشد المشحون كالبضاعة في الحافلة. كانت ثمرات الألسن تسقط في أذنيه من جميع الجهات، كل مشغول مع صاحبه بنهش لحم ثالث غائب عنهما. أصابته حالة من اليأس من هول ما كان يصل إلى مسمعه، وهو على هذه الحال وقع بصره على شاب يجلس وحيداً في مقعد منفرد بالقرب منه، ويطل من نافذة الحافلة وهو صامت، فاستبشر الأستاذ سامي خيراً، وقال: الحمد لله على أنه يوجد في الحافلة شخص آخر مثلي، لا يقع في أعراض الناس! لكن ما هي إلا لحظات حتى رأى ذلك الشاب ينظر إلى أحد راكبي السيارات الفارهة في الشارع، ثم يهز برأسه، ويقول: سبحان المعطي لحماً لمن لا أسنان له! كيف لهذا الحمار أن يضع حافريه في سيارة النملة؟! جحظت عينا الأستاذ سامي من شدة الاندهاش مما سمعه، فهذه المرة ليست غيبة، بل حسد وحقد! فخيّل إليه بأنه يقف وسط أكياس من القمامة، لا يفوح منها إلا القبيح الذي يثير في النفس الغثيان والرغبة في القيء.

وما أن وصلت الحافلة إلى الموقف القريب من منزله حتى غادرها مسرعاً لا يلوي على شيء، طرق باب منزله بقوة، فتحت له زوجته الباب على عجل، فلاحظت في تقاسيم وجهه الغضب والتجهم، فبادرته بالسؤال: ما بك؟ ولماذا تأخرت؟ فأجابها: لقد تأخر الحمار الذي يقود الحافلة عن مواعده...!! اندهشت زوجته من جوابه؛ فمنذ خمس سنوات على زواجهما لم تسمعه يسب أحداً أو يغتابه.

عذراً عباس

في معرض لتاريخ علم الطيران، كُتب بخطٍ عريضٍ: "هذا أول إنسان حاول الطيران، وهو بذلك يستحق لقب مؤسس علم الطيران". كانت لوحة جدارية ضخمة تحتل مركز الصدارة في تلك القاعة الفسيحة، تصور رجلاً من القرن الثامن عشر، يحمل ما يشبه جناحي الطائر، يحاول التحليق بهما. تأملت تلك اللوحة كثيراً، ثم سألت نفسي: ماذا سيقول عباس بن فرناس لو كان هو الذي يقف أمام هذه اللوحة بدلاً مني؟ هل تراه يصرخ بهم غاضباً؛ لأنهم غمصوه حقه، فسلبوه شرف الريادة على هذا الذي قدّم عليه، وهو الواصل بعده بقرون؟

يا عباس، يعرفوك كما يعرفون أبناءهم، فضحتهم ألسنتهم وأقلامهم، موجود أنت يا عباس في كتبهم، لكنهم يتعاملون عن قراءة اسمك، ليس ذلك لأنهم يجهلون عبقريتك وموهبتك، بل لأن الأمة التي تنتمي إليها لا شأن لها عندهم، فكيف ينسب من له شأن لمن لا شأن له؟ فلا تلمهم يا عباس، مشكلتك معنا وليست معهم، فنحن الذين لا نعرفك، ونحن الذين أضعنا ميراثك، فكنا سبباً في إخراجك من كتاب التاريخ، كيف تلوم عليهم أنهم ما علقوا صورتك في بيتهم، وبيوتنا نحن أبناءك ما حوت صورتك، وذاكرتنا ما أبقت من ميراثك غير اسمك؟! فماذا يفعل اسم بغير ميراث؟ وهل للاسم من غير المسمى أي معنى؟!
يا عباس، حملتك الهمة العالية لتجاري الصقور في تحليقها في أعالي السماء فسقطت، ونزلت بنا الهمة الوضيعة إلى جحور الجرذان فسقطنا. ومن كانت همته إلى السماء فإن انتسابه لا يكون إلا للطيور، ومن كانت همته إلى الأرض فإن انتسابه لا يكون إلا للديدان. فحري بك بدلاً من الصراخ عليهم أن تشكرهم أن ما نسبوا للطيور للديدان.

إن القوي يملك القلم فيكتب به ما يشاء، فلا تلم غير الضعيف الذي يكتب ما يمل عليه. يا عباس عندما سقطت تأملت كثيراً؛ لأنك ما ألفت السقوط! وألفنا السقوط فما عدنا نشعر بالألم! إنما أمة الغطاء، فلا تحزن أن ما نسبوك إلى أمة ساد فيها الأموات على الأحياء.

حاولت الطيران فلبست الريش، وخلعنا ريشنا فعرينا. صنعت لنفسك جناحين فطرت في السماء، وكسرنا جناحينا فزحفنا على الثرى. تعلق قلبك بالسماء فارتفعت فوق القمم، وتعلق قلبنا بالأرض فعلت علينا جميع الأمم. علت علينا الأمم؛ لأنها أشرفت من على جدار بنته لتعلق عليه أسماء عظمائها، وعمدنا إلى الجدار الذي عليه أسماء عظمائنا فهدمناه فصرنا دونها. يا عباس أما علمت أن كثيراً من الأحياء أموات وبعض الأموات أحياء؟ فلماذا الحزن، وأنت الحي بأنك لم تعد موجوداً في ضمائر ميتة؟!

عذراً يا عباس، أردت أن أطيّب ببعض الكلمات خاطرك، وأطمئن بالك، فإذا بي من غير قصد أزيد عليك جراحك، وأضاعف من آلامك، لكنني أردت فقط أن أبين لك أسباب تقصيرنا في حفظ ميراثك، وأن أوضح لك لماذا سقط القلم من يدنا؟ وكيف أصبح بيد غيرنا؟ فكتب عنا ما ليس فينا، وأسقط عنا ما هو أصيل

فينا، فتقرأ في كتبهم وصحفهم ينسبون إلينا الجبن والإرهاب والغباء! ويسلبون منا الشجاعة والتسامح والذكاء! ما اعتذارنا إليك يا عباس سوى أننا أصبحنا شركاء في البلاء، وأن بعض أبنائك لزالوا يذكرونك، ويعتزون بالانتساب إليك، لعلك تجد في هذا بعض العزاء، فاقبل عذري يا عباس، فما أنا إلا امرؤ من هؤلاء.

قحف السِّلحفاة

جلس خلف طاولة تتوسط مطعم الجامعة التقنية، بين حشد هائل من الطلبة الذين جاءوا إلى هذه البلاد من أصقاع شتى. فهذا صيني، وهذا هندي، وذاك من أوروبا الشرقية، وغيره روسي، وأفريقي، وأمريكي، وعربي، وتركّي، ... وغيرهم، اختلفت ألوانهم وألسنتهم وأديانهم، وتوحدت أهدافهم في طلب العلم، فاجتمعوا تحت سقف هذه الجامعة. حضروا في هذه الساعة جميعاً إلى هذا المستراح؛ لتناول وجبة الغداء، وكذلك كان حاله، إلا أنه كان قد وصل متأخراً، فاضطر للانتظار حتى فرغ له مكان. وضع الطبق الذي يحمله أمامه على الطاولة، وشرع في تناول الطعام، وما أن وضع اللقمة الأولى في فمه، حتى نبهه صوت شخص كان يجلس أمامه. نظر إليه فوقعت عيناه على شاب في الثلاثينات من العمر، حنطي البشرة، كث الحاجبين، حليق الرأس أمرد الشاربين، بلحية شعثاء طويلة، ومن شدة إهمالها بدت له حينها وكأنها وكر لثعابين تفرقت في مختلف الاتجاهات، فسأله بلغة عربية فصيحة، فيها أثر لكنة نيلية: هيئتك توحى بأنك عربي، فهل أنت مسلم؟ وضع الملعقة من يده، وأجابه: نعم، هل من خدمة أقدمها لك؟ فرد عليه: لا، لكن لم أسمعك تلفظ البسملة قبل الطعام، فأردت تذكيرك من باب النصح للمسلمين! قال له: شكراً على تذكيرك، لكني ذكرتُها سراً. قال هذا، ثم أمسك ملعقته من جديد؛ ليكمل الأكل، لكن ذلك الشخص عاد يقول له ووجهه مقطب: كل بيدك اليمين، فتلك هي السنة!

نظر إليه مبتسماً ثم قال له: عزيزي إن يدي اليمين تمسك بالسكين، فهل يوجد في السنة ما يمنع أن أكل باليسرى إن كانت اليمين مشغولة؟

قال: نعم، إنك تتشبه في ذلك بالكفار! وفي السنة ما يمنع التشبه بالكفار! ابتسم في وجهه ابتسامة صفراء، ولم يجبه، وأخذ يتناول طعامه، ونفسه تحدّثه في تلك الأثناء بأنه حصل على مقبلات شهية لوجبة الغداء هذا اليوم. كان ينبغي لهذا الشخص أن "يخلق كذلك حاجبيه حتى تكتمل الدمامة في وجهه!" ليصبح بهيئته وبفضاظته كلامه نموذجاً مثالياً للرعب والتخلف.

لكن ذلك الشخص لم يعجبه عدم الرد عليه، فقال: أراك قد ابتسمت، ولم تهتم بالسنة! وعدت لتأكل باليسرى كالكفار!

توقف عن تناول الطعام، ونظر إليه مغضباً، ثم سأله: من تقصد بالكفار؟ فقال له: أهل الكتاب والمشرّكين! أجابه: تعني هؤلاء زملاءنا، الذين يجلسون من حولنا، والذين نجلس على طاولتهم، ونأكل من طعامهم ونتعلم في جامعتهم! أما تستحي من نفسك أن تدعي الإسلام ثم تشير إلى هؤلاء بكل احتقار وكأنك تنصب من نفسك رباً للكون؛ لتحكم عليهم بالكفر!

أجاب ذلك الشخص: نعم، هم كفار. يجب أن نكون مميزين عنهم، ولا يجوز أن نتبع طرقهم في الأكل والشرب واللبس!

قال له: حسناً، إذا لماذا تأكل من طعامهم؟ الصحن التي أمامك فيها طعام مطهي بالطريقة الألمانية، وليس بالطريقة الإسلامية أو (العربية)، ثم إذا كان هؤلاء الناس من حولنا كفار فلماذا تجلس بينهم؟ ولماذا تدرس في معاهدهم؟

ثم أنت تقول: إنهم كفار، والله يسميهم في كتابه أهل كتاب، ويشير بصراحة شديدة، وفي أكبر السور أنه من آمن به ويوم الحساب وعمل صالحاً فلا خوف عليه، وسوف يكون له الجزاء من جنس عمله، فلماذا عميت عينك عن هذه المعاني، وجعلت من نفسك خازن النار، تكفر الناس، وتقذف بهم إلى جهنم، لتغلق بوجههم باب الرحمة الواسعة التي ينسبها خالق الكون لنفسه، ثم ماذا عن اللباس؟ أنا أنظر إلى (الجاكيت) الذي ترتديه عليه (ماركة) ألمانية، وبنطال (الجيمنز) هذا معروف صيني، وحذاءك (ماركة) (دايشمان) ألماني، وساعتك هذه (كاسيو) صينية، وهاتفك المحمول (نوكية) هنغاري الصنع، وحاسبك المحمول الذي تضعه جانبك (ماركة سوني) ياباني، والنظارة التي بجانبه عليها (ماركة) إيطالية، بقي أن أتمنى أن تكون ملابسك الداخلية صناعة عربية! ثم لماذا لا تهذب لحيتك أو تحلقها، هل تعتقد نفسك تعيش في الصحراء؟! الصحناء؟!

غضب ذلك الشخص غضباً شديداً، فأجاب بصوت مرتفع: أنا لا أرد على أمثالك من الزنادقة، الذين لا يريدون أن يطبقوا السنة، والذين يتشبهون بالكفار!

أجابه من جديد: عزيزي، أنا لست زنديقاً، ثم من قال لك إنني لا أريد تطبيق السنة؟ فأنا أطبق جوهرها وليس قشورها، أطبق السنة في محبة الناس واحترام إنسانيتهم، وعدم تحقيرهم أو رميهم بالكفر، وفي تعلم المفيد من الأشياء بدلاً من البحث عن السفساف. ثم ماذا عن طرائق البحث والدراسة، التي هي من أساليبهم ونحن نتبعهم بها في تعلمنا في هذه الجامعة؟ ما رأيك أن لا نتشبه بهم، ونتعلم بطريقة الكتابات، أو بطرائق ومناهج الفقهاء في القرون الوسطى؟ أما بخصوص هذه اللحية الشعثاء التي تعتقد أنك تتشبه بها بالسنة، فحاشي للرسول أن يرضى مثل هذا المنظر، فلقد كان جميلاً ويحب الجمال والأناقة، فحث الناس في زمانه وهم يعيشون في مرحلة البداوة في الصحراء أن يهتموا بمنظرهم وأن يعتنوا بتهذيب لحاهم، وأن يترفقوا بالناس ويتسموا في وجوههم، وأن يرحمهم، وأليس هو الذي قال: "أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". ثم لا أكتمك حديثاً، بأن منظر ك وأنت تترك أسنانك بقطعة الخشب هذه التي تضعها في جيب قميصك، كان مقزز جداً، فلماذا تفعل ذلك؟

فأجاب من فوره: هذه ليس قطعة خشب بل هو سواك، وهو سنة مؤكدة، يبدو لي أنك لا تعرف شيئاً عن السنة!

قال له: لقد أراد الرسول للمسلم، أن يكون نظيفاً وظريفاً، أراد له أن يكون بأحسن منظر فأمره بتنظيف أسنانه، والاعتناء برائحة فمه، فنظر من حوله، فما وجد في زمانه وفي بيئته غير هذا النوع من الأشجار التي لها رائحة طيبة، فاقتطع من أغصانها عوداً يستعين به على الاعتناء بالأسنان، فكان في زمانه فعلاً حضارياً مذهلاً، ولو كان في زمانه فرشاة الأسنان والمواد التي اخترعها الإنسان للاعتناء بالفم، لما استخدم غصن

شجرة، وهو مثلاً كان يستخدم السكين أو حد السيف لتهديب الشاربين واللحية وتخفيف الشعر، فهل لو وجد في زمانهم ما كينة حلاقة ماركة (بروان أو موزرت) سوف يستمر باستخدام السكين للحلاقة؟ لم يعجب هذا الكلام ذلك الشخص، فجمع أغراضه من على الطاولة، وأراد أن يرحل، وهو يقول: لدي موعد يجب أن أسرع حتى لا يفوتني القطار. أنت شخص ثرثار ومجادل، تفلسف المسائل. حسناً، ابق على تشبهك بالكفار، وسوف نُحشر معهم في النار، وأنا أُصر على اتباع السنة، حتى لو تخلى عنها من هم أمثالك من الزنادقة!

أجابه: حسناً، شكراً لك على كلامك المذهب، لا زلت تصر على أنك تتبع السنة، ولا زلت تصر على أنك لا تشبه بالآخرين، وأنت لا تحمل شيئاً ينتمي لك سوى قطعة الخشب هذه، ولحيتك الشعثاء. ثم لماذا تريد أن تسافر بالقطار؟ أليس القطار من صناعة هؤلاء الذين تصممهم بالكفر؟ لماذا لا تتبع السنة؟ لقد كان الرسول يركب الناقة أو الحمار، ولم يكن يركب القطار. لذلك - ولكونك تريد أن تطبق السنة كما تفهمها، ولا تريد أن تشبه بالكفار - فإني أنصحك أن تتخذ لنفسك حماراً، تربطه أمام جامعة برلين التقنية؛ لتركب عليه عندما يكون لديك موعد! وكذلك الرسول لم يكن يرتدي بنطال جنز، لأن العرب في مرحلة القرون الوسطى في الصحراء كانوا يرتدون لباساً قريباً من اللباس الذي ترتديه القبائل البدوية اليوم في الصحاري العربية، فأنا أنصحك كذلك أن تخلع سروالك هذا وتلبس حسب السنة، اللباس البدوي، وكذلك حذاؤك هذا ماركت (دايشمان)، على حسب علمي هذه الماركة غير موجودة في السنة، الماركة المعروفة آنذاك كانت تسمى النعل أو الخف. إذاً يتوجب عليك كذلك التغيير حتى لا تخالف السنة كما تفهمها. أما الوقت فكان يُعرف بوضع عصا في دائرة ترسم على الرمل، فلبسك لهذه الساعة ماركت (كاسيو) هو كذلك مخالف للسنة! أما حملك للهاتف والحاسب المحمولين فهذه بدعة خطيرة لا تعرفها السنة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار!

نعم أنا أنصحك بتغيير الأشياء التي قلتها لك؛ حتى تتخلص من هذا التناقض الذي أنت فيه، وبذلك يحيا مظهرك مع عقلك في القرون الوسطى. وما دام أمثالك لا هم لهم سوى التمسك بالقشور، وتكفير الناس والحكم عليهم بالخلود في جهنم، فسوف تبقى مجتمعاتنا تعيش كقحف سلحفاة في مدنيتهما. انزعج صاحب اللحية الشعثاء كثيراً من هذا الكلام، فسبه بكلمة بذيئة وهو يغادر المكان، فعاجله قبل أن يبتعد قائلاً له: حاشى متبع السنة أن يخرج من فيه كلمة بذيئة!

وبعد عدة أسابيع من هذا الموقف شاهده بالمصادفة في إحدى المقاهي يجلس مع فتاة روسية ما يظهر من جسدها أكثر مما يستتر، وقد بدت الجلسة رومانسية إلى أبعد الحدود، فكان صاحب اللحية الشعثاء في حالة من الابتهاج والفرح الشديد، ويتصرف بلطف وهدوء مع تلك الفتاة، على عكس تصرفه الفظ على مائدة الطعام. قال في نفسه: يريد هذا المخرف أن يطبق السنة فقط على الدراويش من أمثالي، ويتهمنا بالزندقة والكفر. حسناً، فلنرى رأيه حول بعض المسائل. اقترب منه، وقطع عليه حديثه مع تلك الفتاة،

ثم سلم عليه، وهو يرمقه بنظرة فيها شيء من الخبث، فما أن انتبه إليه حتى انتفض وهو يشعر بالارتباك الشديد، وقد احمرت وجنتاه، فرد السلام بتلعثم، وكأنه رأى ملك الموت.

قال له: أنا آسف على الإزعاج، لكن لدي سؤال مهم لحضرتك، هل تسمح لي؟

فأجابه: أسأل بسرعة، ماذا تريد؟

سأله: عندما تطفلت عليّ في المطعم منذ عدة أسابيع، قلت لي إنك تطبق السنة، فأود أن أسألك: هل من السنة أن يجلس المرء مع فتاة شبه عارية؟!

فعاجله بالقول: هي ... هي ... توقف عن سوء الظن بي. إنني فقط أدعو هذه الأخت للإسلام!

قال له: أمن أجل دعوتها للإسلام - كما تقول - توصيك السنة أن تجلس معها على طاولة منفردة، تحت الأضواء الخافتة، وتشعل لها الشموع، وتمسك يدها؟ كان من الممكن أن أصدقك لو قلت لي إنك كنت تقرأ لها الكف، لكن طبعاً قراءة حسب السنة؟! لا شيء، لكن حتى لا أظن فيك السوء! عزيزي إنني أنصحك أن تدعو نفسك أولاً قبل غيرك، وأن تكف عن الدجل الذي تمارسه على الآخرين، وأود أن أقول لك أيضاً: إنني التقيت من قبل بشخص متخلف مثلك، بهيئة تنتمي لأهل الكهف، وقد زاد عليك أن ارتدى اللباس البدوي، لكن بقياس نص كم. ثم زعم كذلك أن هذا هو الإسلام، وأنه يطبق السنة. وقد تبين فيما بعد أنه كان مزور عملة. إن الدين عبادة وسلوك ومعاملة وأخلاق، وليس لباس وقشور ودجل، عندما تحب جميع الناس وتتمنى لهم الهداية، والجنة، وتتوقف عن ترديد أسطوانتك المشروخة بوصمهم بالكفر حينها تكون مسلماً. عندما تحرر عقلك من أسرهِ في قحف سلحفاة حينئذ ستكون مسلماً.

الإسلام بدأ باسم الرحمن فهو دين الرحمة، وليس دين التكفير والعداء. ولأن أول كلمة نزلت فيه هي (اقرأ) فهو دين العلم، ولا مكان للجهلاء فيه، فهو منهم بريء، وهم منه براء! انزعج من هذا الكلام أيما انزعاج، فصاح به، قائلاً: وما علاقتك بي؟ ولماذا تقول هذا الكلام؟ هل يوجد أحد مسلطك عليّ؟

قال له: عجباً لأمرك يا رجل، ألم تقل لي منذ أسابيع - عندما كنا في المطعم - إنني يجب ألا أُنشبه بالكفار، وإنه يجب عليّ أن أطبق السنة، ها أنا أخذت نصيحتك بحذافيرها، وطبقت السنة في تذكير الجاهل من باب النصح، وفي فضح الدجال من باب النهي عن المنكر! قال له هذه الكلمات، فتركه بعدها في حالة من الاندهاش والحيرة، وهو لا يعرف بماذا يجيبه.

بائع الكرستال

كان يتجول بثقة مطلقة، يمشي بخيلاء وتبختر، يدندن من سعادته، ولا يملك نفسه بين البرهة والأخرى إلا وهو يهتز طرباً ورقصاً من دفق الموسيقى المنبثقة من سماعات هاتفه الجوال، ينظر إلى واحدة فيغمز لها بعينه، وإلى أخرى فيشير لها بفتائل من شعره الأجدع، الذي لا مس كتفيه من الإهمال.

كنت أراقب بعناية هذا المترنح، الذي يبدو كأنه قد خرج للتو من ماخور أو مرقص. رأيت يقترب من بعض المراهقات، فيهمس لهنّ بكلمات لم أستطع سماعها، لكنني كنت ألاحظ تعابير وجوه الفتيات الصغيرات بين ممتعة أو مندهشة أو ضاحكة. وكان كلما مرّ به مراهق أو مراهقة فعل الشيء نفسه، يهمس لهم ثم تظهر تلك العلامات على الوجوه، فأتار هذا الأمر فضولي، ترى بماذا يهمس لهم غريب الأطوار هذا؟ غلب عليّ الظنّ بأنه يسمعهم كلمات بذيئة، لكنني استدركت هذا التخمين، فإن كان قصده التحرش بالفتيات، فما شأنه إذاً بالذكور؟!

قلت: لا بد أن في الأمر سرّاً! دفعني الفضول لأن أقترّب منه أكثر، وبخاصة بعد أن سمعته يردّ على مكالمة من هاتفه المحمول بلهجة إحدى الدول العربية!

ارتقبت فرصة لأقترّب منه أكثر عند مرور بعض الفتيات، فسمعته يردد بلغة ألمانية ركيكة كلمات مفادها: "حبة كرسنال صغيرة، تجلب لك المتعة الكبيرة!" اعتقدت حينها أنه يعرض للبيع أقراصاً طبية من أصناف المنشطات الهرمونية، لكن اعتقادي هذا كذبت بعد قليل (هيلينة)، التي أطلت من مدخل محطة القطارات الأرضية، ثم تلفتت ميمنة وميسرة، كأنها تبحث عن شيء فقدته. وما أن وقعت عيناها على صاحبنا المترنح حتى أقبلت عليه، تسابق أقدامها الريح، كأنها المسافر الذي عاد لتوه يلقي أحبة فارقهم لعهد طويل. كانت (هيلينة) مراهقة في حدود الخامسة عشرة من العمر، من جميلات نساء القوم، خضبت أشعة الشمس جدائلها الشقراء، وسكب البحر زرقة مائه في عينيها، ومنح غيم الصيف وجهها بياضه الناصع، وأعارتها شجرة الحور فرعها الباسق. ارتمت بين أحضانه تعانقه، ثم همست بأذنيه، فأشار لها بيده يفرك أصابعه بالحركة التي تعبر عن النقود... فرأيتها تخرج من جيبها قطعة ورقية من فئة العشرة يورو، لكن يبدو أن الثمن المدفوع لم يكن كافياً، فأخذ يلوي برأسه إلى اليمين وإلى اليسار معبراً عن عدم موافقته! كنت في تلك اللحظة قريباً منهم جداً، لكن أحداً منهما لم يبالِ بإنصافي إليهما. سمعتها ترجوه بحرارة، وتعتذر إليه أنها لا تملك غير هذه الورقة النقدية، لم يكثرث بها، فأمسكت يده باضطراب شديد تشدها إليها، وترجوه أن يعطيها بعض تلك الأقراص، غير أنه دفعها بقوة حتى كادت تسقط على الأرض.. لم تنصرف، بل عادت من جديد تتوسل إليه بانفعال أكبر، وهي في حالة عصبية ونفسية غير طبيعية، فازداد قسوةً وتسلطاً، ولم يأبه بالفتاة الصغيرة وهي تتمسح بثيابه، وقد علا صوت نحيبها، المحمل بالرجاء.. فملأ أوداجه بالهواء، ثم زفر بشدة، معبراً عن موافقته على أن يبيعها تلك الأقراص بما لديها من نقود، لكنه اشترط

عليها أن تلبي له ما يأمرها به، فانتصبت الفتاة على قدميها، وهي تكرر كلمة الموافقة على شرطه. كان أول ما طلبه منها أن تخلع حذاءها، وتذهب إلى أول المحطة، ثم تأتي إليه عدواً، وتقبله، فاستجابت من فورها. خلعت حذاءها، وهرولت في المحطة؛ لتعود إليه، وتقبله. ثم طلبت منه الأقراص بعد ذلك، لكنه امتنع، وطلب منها المزيد لتفعله، فقد ألزمها أن تفك بعض أزرار قميصها، وحينئذ ظهر جل صدرها. وعندها فقط دس لها تلك الأقراص المخدرة في ثيابها، فأخرجتها بسرعة جنونية، وابتلعها بلمح من البصر. فرمقها بنظرة عابثة في الوقت الذي رنّ فيه هاتفه المحمول فمضى إلى شأنه. أما هي فقد جلست على حافة المقعد الخشبي الأحمر تضع رأسها بين يديها، وقد استسلمت لصمت طويل والدموع تهيم من عينيها، في الوقت الذي ملأ فيه زعيق القطار أرجاء المحطة.

في المنفى

يوم جديد مثل بقية الأيام الخالية، بلا نوم، بلا أحلام، ليس فيه سوى صور ذكريات لغرباء لا يسأمون من اجتراحها. يوم جديد في مدينة الآمال الواهية، متجمد كأنهارها، ومتبلد كعتمة دروبها. في مثل هذه المدينة يكون المرء وحيداً، إلا من خيبات وحسرات، وهنا يكون المرء غريباً إلا من قسوة الذكريات وصلادة النظرات، كذلك ربما يكون المرء هنا دون أن يعرف ماذا يريد؟ وماذا يجب أن يريد؟ وربما أنت صرت مثلي، لا تعرف ما الذي تريده؛ لأننا منذ أن مهرنا بأقدامنا على عقد الإبعاد أصبحنا مسلوبين الإرادة. إن الزمان الحقيقي في عاصمة الحديد يفقد أهميته المقدسة، ويكتسب حلة جديدة، هي الحلة البائسة المرقعة، التي تسى مدة زمانٍ أو إبعاد لشريد بأُس! الأحلام القديمة أبلأها العتق، فتمزق خيطها، وصدئت إبرة خائطها! ثوب مرقع ما عاد يجدي نفعاً مع برد قارس! في العينين بعض شرود الأمس وبعض سهاد الليل، وفوق الأهداب المتقوسة كتل متراكمة من الجليد، وأطنان من الخوف في القلب التليد!

يومٌ جديد للتو بدأ، وللتو سوف ينطفئ، كبقية السنوات التي مضت من عمرك وعمري، ونحن ها هنا واجمون في المكان، ندور على ذواتنا بلا حراك، نلهث خلف قصاصة ورق حمراء كُتب عليها بلغة التنازل وحبر الجهال: ملعون من حصل عليها، ملعون من حملها، ملعون من تركها، ومفقود من عاد بدونها! البرد والحديد وشيء من عفن القلوب يجعل الدّم الفاتر متبلد الحراك، فيشل بعض الأطراف عن المسير! في هذا اليوم قررت أن أنثر بعض أحزاني وأحزانك بين يدي صفحاتنا الصفراء بشوق كبير يغمر مهجتنا للتحرر من قيود هذا الأسر. في هذه المدينة يحتاج الغريب دوماً إلى ذلك العزم الصامت الذي يشدّ مآزر إرادته، يحتاج إلى التسليم العميق بالعجز المطلق عن فهم كنه القدر، بمثل هذا الإيمان فقط سوف تضع يدك على الحبل الذي يمكنه أن ينتشلك من الغرق في الأحوال، يوماً بعد يوم، يشدك وينتشلك كما كان يفعل دوماً، وكما يفعل اليوم، عندما يحفزك على أن لا تذوب في عفن النسيان!

في المساء تكون الرؤية ضبابية في مدينة الحديد، لكن لديّ شعور خفي بأنك موجود في مكان ما قريب مني! أنظر في وجوه الناس الواجمة من حولي، فلا ألمح طيفك بين تلك الهياكل المعدنية، غير أن شعوري يزداد شدة كلما رفعت رأسي لأتعالى عن التراب الذي يحيط بي. رفعت رأسي عالياً، ومشيت بثقة ذكرتني بها روحاتنا وغدواتنا معاً! وارتفعت إلى مستوى أنظر فيه إلى السماء العالية المجيدة ... فكانت المصادفة الرائعة، أخيراً عرفت مكانك، ومن أين يشع ذلك الضوء؟ ... إنه من ذلك الوجه الحميم، الذي طبع على قمر يزين هذه الليلة الرمادية الباردة على الأرض المنيرة الدافئة في السماء. نعم رأيتك تطل بوضوح من عتبات ذلك القمر، الذي لا يزور مدينة الأمنيات العاثرات إلا كالعيد في أيامه المعدودات، ثم ودعتك لأذهب إلى موعد مع المجهول البعيد، في رحلة محفوفة بالخطر، الخطر الذي بات يلاحقنا حتى على فراشنا، ونجده ينتظرنا مع كل صباح في أحذيتنا!

ترى أيها الغريب، هل سمعت المكان والزمان والإنسان المتبقي في أعماقك في هذه المدينة يهتف بك صارخاً: عد من حيث من أتيت؟ إذا كنت قد سمعت ذلك، فدعني أسألك، وأستحلفك ألا تكتمني الإجابة: هل ستعود؟ وإلى أين؟ إلى بلدك؟ ترى أين هي بلادك؟ وإن عدت ما عساك تجد في بلادك؟ جليداً .. حديداً .. أم تراك ستبحث جاهداً في بلادك عن بقية ذكريات قديمة لمن كان إنساناً، ثم أصبح كائناً ممسوخاً مأسوراً في بلد الإبعاد.

في هذه الزنانة الانفرادية؛ غرفة الأشباح المعدة ليعيش بين جحيم جدرانها كائن واحد أو هيكل معدني يسمى واحد، أو سمّه ما شئت أن تسميه، لكن أتحدّك أن تجد له في قاموس الإنسان مرادفاً. وعلى أطراف عاصمة الأمة العريقة، ثلاثة مدائن الدنيا الجديدة، حلم الفقراء، وجنة الأغنياء، التي تسمى بلغة القروء المشتركة بيننا حضارة! كانت البداية. لكن قبل أن يسمح لك بالدخول إلى معبد الحكاية، عليك أن تعرف من هو كاتبها، ولأنني أعرف أنك لا تعرف عن الكاتب شيئاً، فسوف أخبرك بالإجابة السرية مجاناً، هي إجابة استخرجتها من قاموس الأوجاع، حيث كتب في الصفحة الأولى: هذا قاموس الأوجاع، كُتب بكل لغات الألم، يتحدث عن تاريخ مسلوب، ولا يسمح بقراءته إلا للأطهار رواد الأماكن المقدسة، الذين ينحنون أمام شاهدة يراعٍ مقتول، فالذي خط الحكاية لنا هو يراعٍ مقتول، فأرجوك وبشدة، أن تقف ألف دقيقة صمت تقديرًا لهذا الشهيد المنسي، الذي سوف يعلمنا أعظم فن متقن للهروب من الواجبات الرتيبة المملة. قبل أن يقتل اليراع الشهيد تساءل بمرارة فقال: ترى أيّ تمازج لألوان متشاكسة يجمعها طيف هذه النفس، صاحبة التركيبية الأكثر تعقيداً في هذا الكون، ربما يجد المرء نفسه بين الحين والآخر مدفوعاً للحديث بلغة غير مفهومة، غير واضحة، ربما يكون له في ذلك عزاء للتخفي خلف ستائر نفسه، خلف ظلال آلامه، ربما لا يطيق المرء - إن كان ذا أنفة - أن يستمع كائناً من كان إلى أصوات تفتقات قلبه، وإلى أصداء خلجاته. يا صاحبي ... إن قدرك أن تستمع في هذه الحكاية إلى خليط ثرائر متنافرة متشاكسة، إلى موسيقى نشاز يصدرها جرحٌ نازفٌ لهذا القلم، الذي تعود في بلاده على أن تهرس إرادته تحت حذاء يسمى ظلم، رشوة، فساد، انحلال، قذارة، تجبر ..، كلها تنصب من نفسها آلهة مقدسة تُعبد من دون الجليل.

ربما عليّ أن أترجم لك جراحات هذا القلم؛ حتى يتضح لون الدم جلياً! فمنذ عهود خلت كان هذا القتل المسكين يعاني محاض ولادة فكرة، لكن آلام المخاض أزهدت الفكرة واليراع.

وها أنا بعد أن ثكلت اليراع الشهيد، أجلس وحيداً في حجرتي اليتيمة، حائراً أدور على نفسي في محاور الخطوط المتقاطعة، خالياً إلا من أشباح لدواقي المنقسمة، المتخفية خلف غياهب الأيام، التي جعلت مني ومنك بعض أحاديث لشريدٍ طريدٍ، ربما كان عليّ أن لا أثقل كاهلك بهذا التفلسف الطويل الممل! لكن أستحلفك بإبعادك المقدس أيها اللاجئ المبجل! إذا لم يبع هذا اليراع لك، فإلى من يبتغي في الأرض بوحاً؟ فعليك وحدك أيها الغريب - لا على غيرك - تقع المهمة القصوى لكي تترجم آلام الناس وأوجاعهم، همومهم ومشاكلهم، وجودهم وانتماءهم، حضارتهم وامتدادهم. لكن أتني لك فعل ذلك وقد سرقوا منك مهمتك

وقتلوا يراعك؟ أتى لك فعل ذلك وقد أوهنوا قواك، وشتتوا هداك، عندما علقوا على ظهرك يافطة كتبوا عليها: بعيد برسم العبيد؟!

أيها الغريب، يعجبني أن أتكلم معك بعد طول صمت، ويعجبني أكثر أنك أصبحت أصم ... أيها الملك المزيف، يا دون كيشوت، يا من تقاتل بسيف من الأوهام، الآن أكتشف أنك لست إلا ظلاً سخيلاً. أكتشف الآن أنك لم تكن يوماً كاتباً إلا على الماء، لم تكن إلا كمن يبني القصور على الدخان، رغم أنك تلعب دور البطولة في كل رواياتك، وتعشق لعب هذا الدور، إلا أنك ستبقى حائراً أمام حقيقة النهاية، التي ستكشف دائماً عن سخافة أدوارك الوهمية!

ثم ماذا بعد ... ها نحن تفلسفنا كثيراً، وما فهمنا شيئاً، سوى أن الفلسفة هزت كتفيها، وأقعت ذيلها كالكلب، ثم انسلت هاربة، بكل وقاحة، كأن الأمر لا يعنيها! وتركت لنا عبارة واحدة تقول: قف أيها الغريب أمام ضريح هذا اليراع الشهيد؛ لتستعيد بعض أحزانه، لتنثرها فوق شاهدة قبره، ثم أدر ظهرك له، وغادره إلى الأبد.

السّمكة في المزهريّة

كان اللقاء في القاعة رقم ثلاثة آلاف ومائة وستة، أمام طاولة الخشب الرمادية المستديرة، التي تضم سبعة عشر عضواً من اثنتي عشرة دولة. كان برفسور شفمير يأخذ مكانه المعتاد في وسط الحضور، وعن يمينه البروفسور موكل، وعن يساره البروفسور كورتس. أخرج برفسور شفمير - الذي أتم عامه الثاني والسبعين - نظارته المذهبة من جرابها الأسود، ووضعها فوق عينيه الزرقاوين، فغطت حاجبيه الأشيبين، واستندت على أنفه الأخنس، فظهرت معالم الجدية والصرامة العلمية في تقاسيم وجهه، الذي يميل للاستدارة، ثم خلل بأصابع يده اليسرى لحيته البيضاء الصغيرة، ثم أدار الجزء المتحرك من قلم الحبر الأسود ذي الماركة الفاخرة، الذي اعتاد على حمله في جيب قميصه الكحلي؛ ليسجل في رأس صفحة جديدة من مفكرته تاريخ المشاركة وعنوانها، ثم وضع القلم أمامه من جديد، وأعطى الإذن ببدء المحاضرة.

انتصبت السيدة ليه؛ لتعرض مشروعه. كانت امرأة في الثلاثينات من العمر، سمراء البشرة، بشعر أسود غزيرٍ مسترسل، ينحدر على كتفين هزيلين يتصلان بعود نخيل مال إلى الطول منه إلى القصر، ويعتمد على ساقين دقيقتين طويلتين، تنتهيان إلى قدمين مستطيلتين، لهما شكل ورقة شجر الكينة. أما عيناها فقد كانتا سوداوين مشربتين بحمرة، تسكنان وسط حفرتين صغيرتين شقتا على جانبي أنف يرتفع قليلاً في أعلاه وينخفض بتأني في أسفله، ثم يحيط بهما رأس مستدير، بناصية بارزة عما حولها، ومن شقي عينيها انبعث شعاع يعكس وهج الذكاء المتقد في عقلها. فتحت الحاسب المحمول، وبدأت بعرض بعض اللوحات الفنية لمشاهير الرسم في أوربا، فكانت اللوحة الأولى تمثل طاولة وُضع عليها وعاء فيه سمكة وحيدة. كانت هذه اللوحة البسيطة تلخص بالنسبة لها تصور الحضارة الغربية للكون. إذ تعبّر عن القدرة المطلقة على السيطرة على الأشياء، وإعادة ترتيب شكل الطبيعة، وتغيير محتوياتها. لم يفهم الجميع كيف استوتحت هذه المعاني من هذه اللوحة البسيطة؟. ماذا يعني سمكة محجوزة في مزهريّة؟ ألا يرسم الصينيون سمكة في مزهريّة؟! كان هذا هو سؤال السيد مولر، لكن السيدة ليه أجابت بالنفي الشديد، فالصينيون والشرقيون عامة لا يرسمون الأسماك معزولة في قوارير، بل يصورون الأسماك في بحيرة أو نهر، أي في الرحم الطبيعي الذي تعيش فيه، وليس لديهم الهاجس الغربي للسيطرة على الطبيعة وإخضاعها، والارتفاع على مكوناتها، ومحاولة خلق جمال مصطنع تشكّله اليد البشرية. إن عبقرية الرسام تكمن في قدرته على عكس الجمال الحي في الطبيعة، وليس في تجريدها وعزل مكوناتها عن محيطها. في هذه الأثناء تنحنح السيد شفمير، وهو يعترض على الفهم الذي قدمته السيدة ليه. إن الفنان الغربي لا يعزل عناصر الطبيعة، بل يخلق أشكالاً جديدة من جمال مكوناتها. لم تعقب السيدة ليه، ولم تعد لمناقشة هذه اللوحة، بل عرضت لوحة جديدة، تصور منزلاً أوروبياً ريفياً، عُلق على جداره رأس غزال مقطوعة ومحنطة. مشهد مألوف في التقاليد الأرستقراطية الأوروبية. هذا النوع من الغزلان يعيش في الواحات والصحاري العربية، فهل يقطع العرب

كذلك رؤوس الغزلان من أجل الزينة؟! كان هذا تعليق السيدة ليه على اللوحة، وهي تشير بعينيها للسيد عبد القادر، ففهم الرسالة، وعلم أن الوقت قد حان ليدلو بدلوه، فانتصب من على كرسيه، كان رجلاً بهي الطلعة، حنطي البشرة، أجعد الشعر، ادعج العينين، حليق اللحية، بشارين عريضين يتماهيان مع شفثيه الواسعتين، مجسم ممتلئ من غير ترهل، وبصدر مرتفع. اقترب من شاشة الحاسب أكثر، ثم أخذ برهة في تمعن اللوحة، ثم هز رأسه مؤكداً كلام زميلته الصينية: نعم إن هذا النوع من الغزلان يعيش في بلادنا، لا بد أن المستعمر الأوربي قد جلبها معه من بلاد العرب مع بقية الأشياء الأخرى التي كان قد نهبها من الشرق، أما عن سؤال إن كان الفنان العربي يصور في رسمه أو نحته مثل هذه اللوحة، فإني أستبعد ذلك كثيراً، نعم، إن الشاعر والأديب العربي تغنى بصيد الظباء والغزلان في صحرائه وبواديه، والفنان السامي خلد مغامرات الصيد بنقوشه على الرقم كما هو الحال عند الآشورية والآرامية والمروية وقصور ملوك العرب، لكن لا تجد أبداً لوحة تصور رأس غزال مقطوعة بهذا الشكل الوحشي، ومعلقة على الجدار، وإن وجدت مثل هذا المشهد، فإنه سيكون تأثراً بالثقافة الغربية. فالغزال هو رمز الجمال والبراءة في ثقافة العرب، ولطالما شبهت حسناوات النساء به. هذا هو ببساطة رأي المتواضع، ثم عاد إلى كرسيه، وجلس عليه. لكن السيد براغة البرتغالي كان له رأي آخر، فهو يستبعد أن العرب - الذين قاموا بالأعمال الإرهابية في الغرب - كان لديهم مثل هذه الثقافة الراقية والحساسية العالية تجاه رموز الجمال في الطبيعة! فنظر إليه السيد عبد القادر، وابتسم بوجهه، ثم أجابه بكل هدوء: يا عزيزي يبدو أن معلوماتك حول تاريخ المحلي ضعيفة بعض الشيء؛ فقد كانت بلدك حتى الأمس القريب مستعمرة عربية صغيرة، مع فارق أن الأمراء العرب - الذين أعطوا بلادك اسمها (برتقال) - لم يقطعوا رؤوس المخلوقات، ويحملوها إلى الحجاز، والشام والعراق ومصر والمغرب ليعلقوها على جدران قصورهم، بل علقوا على جدران البيوت في بلادك قوانين الرحمة والتسامح، ورسوموا اللوحات الخالدة في التعايش بين المختلفين. لاذ السيد براغة بالصمت، ولم يعقب على هذا الكلام سوى أنه حرك رأسه إلى الطرف الآخر، وقد احتقن دمه، واحمرت خدوده.

ابتسمت السيدة ليه بعد هذه المداخلة، ثم ضغطت على زر (الماوس)، فظهرت على الشاشة لوحة جديدة، تمثل ناي فيل، قد صُقلًا وظلياً بماء الفضة، ثم وُضعا فوق موقد يتوسط صالة استقبال في أحد البيوت الأوربية، ثم توجهت للسيد كاميني، وسألته: هل الفنان الكاميروني يرسم مثل هذا اللوحة؟ وماذا يمكن أن تعني له؟ انتصب الشاب الكاميروني عن مقعده، وقد أقطب حاجبيه فوق عينيه الواسعتين وأنفه ذي الحجرات المترامية، فلمعت أسنانه العريضة شديدة البياض، وسط وجهه الرخامي الأسود، وقد أشار بأصبع سبابته الطويلة ذات الشكل المستطيل إلى تلك اللوحة، بعد أن حرك لسانه وسط القواطع المربعة في فمه، وهو يردد: هذا مثال واضح للوحشية والهمجية التي مارسها الغازي الأوربي على أرض أفريقيا. كيف للعقل البشري أن يستوعب قسوة قلب إنسان يفتك بذلك الكائن العظيم الفيل - الذي هو أروع مخلوقات الله في الغابات الاستوائية - فقط من أجل أن يستمتع بشهوة النظر إلى نابين من العاج يوضعان في ركن حجرة مظلمة؟! إن ذلك الفيل هو حياة بني قومي، وسر من أسرارهم، لا ينفصل عن تاريخهم وحكاياتهم. والمأساة

التي حلت به على يد المستعمر الغربي ما هي إلا جزء من المأساة الكبرى التي لحقت بالإنسان والحيوان والنبات في أفريقيا بأكملها. جلس السيد كاميني في كرسيه، وهو ينكس رأسه، ويحدق في قدميه، فانتاب القاعة صمت مهيب، لم يقطعه إلا تدخل السيدة راج الهندية، بتعليقها: إن شعبي عرف الفيل وعائشه لعهود طويلة، فكان سفينته التي تحمل أمتعته وسط الغابات والأدغال، وكان أنيسه وسميره في وحشة الليل، ورفيقه في رحلة الحياة، فقدسوه ومجدوه حتى رفعوه إلى مرتبة الآلهة! شأنه شأن الكثير من كائنات هذا الوجود، التي تشاركت في الحياة مع بني آدم، فالتفت بينهما أوامر من المحبة والوفاء. لذلك فإنني أفهم وأقدر الآلام التي يمكن أن تحدثها هذه اللوحة الوحشية في نفس السيد كاميني! وعندها تدخل البرفسور البريطاني كورتس، بقوله: نعم، لقد ارتكب الغربيون أخطاء في علاقاتهم مع الشعوب الأخرى، وربما تتحمل بلادي النصيب الأوفى من هذه الأخطاء، لكنني أدعوا جميع زملائي ألا ينظروا بعين واحدة نظرة براء، بل بكلتا العينين. إن كنا قد فعلنا أخطاء فقد قدمنا في المقابل خدمات جليلة للشعوب التي استعمرناه، فقد أوصلنا لها المدنية والحضارة: الآلات البخارية، والمحطات الكهربائية، والقطارات السريعة، ومضخات المياه العظيمة، ومطابع الكتب، ومدارس العلم... كل ذلك يجب ألا يغيب عن أذهاننا، فإن كان الغربيون سلبوا باليد اليمنى، فقد منحوا باليد اليسرى!

حينها طلب السيد فريدوا البوليفي - القادم من أمريكا الجنوبية - الإذن بالمداخلة، فوجه حديثه للسيد كروتس، قائلاً: سيادتكم تبررون الأخطاء الكبيرة بمحنة من المكرمات. يسرق أحدهم دجاجتي، ثم يرمي لي ببعض ريشها! إن إبادة أقوام بأكملها في الأمريكيتين لم يترك لهم متسعاً من الوقت ليستمتعوا بسماع راديو (البي بي سي)، أو مشاهدة لعبة (الغولف)، إنني شخصياً لا أحب الحديث عن الماضي، فلا أريد أن أحرك جثماناً هامداً؛ لأن ذلك عبث بقدسية الموت، لكنني لازلت أذكر تلك اللوحة الشهيرة، التي يقف فيها راهب إسباني ويديه الصليب أمام أحد زعماء قبائل الأرض القابعة خلف البحار، وهو معلق على جذع شجرة بانتظار تنفيذ حكم الإعدام به حرقاً على يد جنود أسبان، لا لشيء سوى أنه دافع عن أرضه وشعبه، يعرض عليه الإيمان بالمسيح الرحيم، فيفضل ذلك الزعيم القبلي الذهاب إلى الجحيم على الذهاب إلى جنة فيها أسبانيون، أرجو ألا يفهمني بعض زملائي بصورة خاطئة، فأنا شخصياً مسيحي، لكنني أردت أن أبين للسيد كروتس المعاناة التي لقيها شعبي على يد أقوام من الأوروبيين!

فأراد البرفسور البريطاني أن يتكلم من جديد، لكن السيدة نوريه الأسبانية رأت أن تسري قليلاً عن زميلها البوليفي، فأسرعت برمي عبارة لطيفة ساخرة، قبل أن يكمل البرفسور البريطاني فتح فمه، قالت: أؤكد لك يا صديقي العزيز فرديو أن الأسبان لم يعودوا بهذا القدر من السوء! وقد كفوا عن حرق الآخرين منذ فترة طويلة! وقد أرسلوا محاكم التفتيش من غير رجعة إلى قعر حفرة مظلمة من التاريخ، فلا مزيد من قطع الألسن، وقلع الأعين، وهرس النهود!

ثم أرادت السيدة ليه أن تعرض لوحة جديدة، لكن السيد شفيمر اعتذر لها بأن وقت الحلقة البحثية لم يعد يسمح بذلك، ثم أردف بقوله: حقاً أيها الزملاء كان الماضي محملاً بالكثير من الأخطاء والمعاناة، ولا نريد

أن نضع الغرب مجدداً - كما فعل المؤرخ البريطاني السيد تونبي - مقابل العالم، بل الغرب جزء أصيل مكمل للآخرين، وليس كياناً مستقلاً متعالياً عليه، ويضرب اليوم المثل في احترام الآخر، وسن التشريعات، التي تصون كرامة الإنسان، وتحمي الحيوان، وتحافظ على النبات، بل كذلك تحافظ على الجمادات، كما هو الحال في حماية المكتشفات الأثرية. الغرب اليوم يفتح ذراعيه لحوار حضاري إنساني مشترك، ولحرية التعبير. وأكبر دليل على كلامي هذا هو لقاءنا الدوري في حلقة البحث هذه، في قاعة من قاعات إحدى أهم الجامعات الأوروبية وأعرقها. إنكم تجلسون في المكان الذي جلس فيه يوماً من الأيام فلاسفة ألمانيا العظماء: هيغل، ونيتشة، وماركس، وفير، وزمل، وفون همبولدت، وفيخته، وغيرهم الكثير؛ لتنتقدوا بكل حرية ورحابة صدر سلوك الغربيين في المرحلة الاستعمارية. إن هذا مؤشر بالغ الأهمية على الوجه الإنساني في الحضارة الغربية. وإذا كنا حقاً مختلفين في الأعراق والأديان والحضارات، فإن ذلك يجب ألا يكون سبباً في تفرقنا، بل علينا أن نصنع من هذا الاختلاف لوحة فسيفسائية متكاملة. إن اختلاف الألوان الزاهية وتغايرها لم يمنع الشمس من أن تخلق منها لوحة خلابة عندما تشرق أشعتها الذهبية جبال القطن الطائرة؛ لتتوج ناصية الأرض قوساً مطرباً رائعاً، وربما لا يكون من الصدفة أن عدد ألوان الطيف سبعة، وكذلك قارات الأرض سبعة. فكما أننا نستطيع بمزج الألوان أن ننتج ألواناً جديدة، ونشكل بها لوحات عديدة، فكذلك بتفاعلنا كبشر نستطيع أن نرسم صيغاً حضارية إنسانية متعددة. دعونا أيها الزملاء ننسى ما كان من ماضينا، ونبدأ صفحة جديدة، نتشارك فيها الحياة معاً باحترام متبادل، وروح أخوية إنسانية صادقة.
